

معركة
الجبل الاخضر

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك
وبطولات حربية
اسلامية وعربية

أشرف على تحرير هذه السلسلة

الدكتور : صالح الأشتر

الدكتور : عمر الدقاق

الأستاذ : محمد الأنطاكي

مهد الدعوة السنوسية

حينَ لاحَ فجرُ القرنِ العشرين كان أكثرُ بلادِ العربِ يعيشُ في أسوأ حالٍ تحتَ وطأةِ الحكمِ العثماني، كانَتِ الأمبراطوريةُ العثمانيةُ، وَقَدْ نخرَ سوسُ الضعفِ والفَسَادُ كيانَها، أشْبَهَ ما تكونُ بجدارٍ يريدُ أنْ ينقضَ، ولا يمنعُهُ مِنَ الانقضاضِ سوى بقيةٍ مِنْ أسبابِ البقاءِ.

وكانَ العربُ والمسلمونَ، وشأنُهُم كشأنِ التُرْكِ، يُشْفِقون على ما كانَ يُسَمَّى بدولةِ الرجلِ المريضِ أنْ تتقوضَ دعائمُها، وتغدو إرثاً سائغاً لدولِ الغَرْبِ التي كانت أطماعُها في هذهِ البلادِ لا تَخْفَى على أحدٍ.

كما كانَ العربُ في الوقتِ نَفْسِهِ يتوقونَ إلى التَحَرُّرِ مِنْ تَسَلُّطِ الأتراكِ العثمانيينَ بعدَ تحكمٍ فيهم دامَ زُهاء أربعةِ قرونٍ. فالسلطانُ الذي يَحكمُهم كانَ حاكماً تركياً ولمْ يكُنْ خليفةً عربياً، كما أن العاصمةَ التي تتزعمُ إدارتَهُمْ «استنبول» لم تكنْ حاضرةً عربيةً بل تركيةً، والأتراكُ أنفُسُهم ـــ ومنهم الحكامُ والقادةُ وأولو الأمرِ والنهي ـــ لم يكونوا على صعيدِ تألقِ الحضارةِ وغنى التراثِ أرقى مِنْ العربِ.

وَمِنْ هنا بدأت نزعاتُ الإصلاحِ وصيحاتُ التمردِ تتفجرُ مِنْ حينٍ إلى حينٍ في أرجاءِ بلادِ العربِ. فكانَتْ صرخةُ الوهابيينَ في ربوعِ الحجازِ تهيبُ بالمسلمينَ أن يعودوا فعلاً لا قولاً إلى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِهِ كذلك كانَتْ صيحاتٌ أخرى لجمالِ الدينِ الأفغاني والشيخِ محمد عبده تنادي بالإصلاحِ الديني والاجتماعي والسياسي، ومن هذا القبيلِ دعوةُ عبد الرحمن الكواكبي إلى جعل الخلافةِ في العربِ ونقلِ عاصمةِ الدولةِ العربيةِ الإسلاميةِ إلى إحدى حواضرِ العروبةِ العريقةِ، ولتكن مكة مثلاً، أم القرى، ومهد الأصالةِ، ومبعث الرسالةِ.

أما صوتُ الدعوةِ السنوسية، التي أسسها العالمُ العاملُ المجاهدُ الشيخُ محمدُ بنُ عليٍّ السنوسي في إبانِ القرنِ التاسع عشر، فكانت أقوى تلك الأصوات في الجناح الآخر الأفريقي من ديارِ العروبةِ والإسلامِ.

وُلدَ الشَيخُ السنوسي في الجزائر عام ١٨٨٧، وأخَذَ العلمَ عن أفاضل الشيوخِ وأماثلِ العلماء، فلمعَ نجمُهُ ونَبَهَ شأنُهُ، وتولى التدريس بالجامعِ الكبيرِ (القروين) في مدينةِ فاسَ بالمغربِ الأقصى.

وَقَدْ مضى في دعوتِهِ وَبَثَّ تعاليمه بالحُسْنَى والموعظَةِ الحسنةِ. وكانَ قوامُ هذهِ الدعوةِ السنوسية احياءَ العملِ بالكتاب والسنةِ. فكَثُرَ أتباعُهُ وازدادَ أشياعُهُ، ولكنَّ ذلكَ كان يثير حفيظَةَ السلطَةِ العثمانيةِ أو

الذين يدورون في فلكِها، مِمَنْ كانوا يَخْشَونَ تَفَتُّحَ النفوسِ وَتَحَرُّرَ العقولِ، مخافَةَ أنْ تنقلبَ تلك الدعوةُ الدينيةُ إلى حركةٍ سياسةٍ.

والحقُّ أنَّهُ كانَ لمثلِ هذا ما يبرِرُهُ، فالإسلامُ عقيدةٌ وجهادٌ، دينٌ ودولةٌ.

وهكذا كان على زعيمِ الدعوةِ السنوسيةِ أنْ يرحلَ شطرَ المشرقِ فيزورَ طرابلسَ وبنغازي ثم مصر، وكان ذلك أثناءَ حُكْمِ واليها محمدِ علي باشا الكبيرِ. وانعقدَتْ بين السنوسي وبين بعضِ شيوخِ الأزهرِ أواصرُ مودةٍ وثيقةٍ. ثم انتقل بعدئذٍ إلى الحجازِ، وفي مكةَ أنشأ السيدُ السنوسي أولى زواياهُ حيثُ مارسَ التدريسَ الديني حيناً من الزمان في كنفِ البيتِ العتيقِ.

استقرَتْ النوى بالسيدِ السنوسي في ليبيا، وحطَّ عصا الترحالِ في برقةَ. ومن الزاويةِ البيضاء، وهي الثانيةُ بعدَ زاويةِ مكةَ بدأ شعاعُ الدعوةِ السنوسيةِ ينتشرُ في أنحاء البلادِ. غير أنَّ سادةَ الأستانة والقاهرة وبنغازي أوجسوا خِيفةً مِنْ التفاف الناسِ حولَ الرجلِ ومِنْ تكاثرِ أتباعِهِ ومريديهِ. فلم يجدِ السنوسي بداً مِنْ أن يتحولَ بنشاطِهِ إلى مكانٍ قصيٍ يوفرُ لهُ الهدوءَ والاطمئنانَ، فآثرَ الانتقالَ إلى واحةِ (الجغبوب) التي تقعُ جنوبي البلادِ وعلى مقربةٍ من الحدودِ الشرقيةِ مع مصر.

في تلكَ الربوعِ الصحراويةِ الوادعةِ وجدَ السنوسي المُناخَ مواتياً لنشرِ دعوتِهِ. وما كادت تمضي مدةٌ يسيرةٌ حتى سَرَتْ تعاليمُ السيدِ بينَ القبائلِ العربيةِ سريانَ النارِ في الهشيمِ، حتى إنَّها امتدَتْ إلى القبائلِ الزنجيةِ المجاورةِ مِنْ هذه الربوعِ الأفريقيةِ وأخَذَتْ أفواجُها تهتدي بأنوارِ التوحيدِ وتتخلصُ مِنْ ظلماتِ الوثنيةِ.

وعَرَفَتْ واحةُ الجغبوب في ظلِّ الدعاةِ السنوسيين حقبةً غيرَ معهودةٍ مِنْ الأمْنِ والاستقرارِ، إذ اطمأنَتِ القوافلُ على سيرِها، وتعلمَ الكثيرُ مِنْ القبائلِ الزرعَ وغرسَ الشجرِ والنخيل في تلك الربوعِ الجديبةِ وتعلم الناسُ في تلك الأرضِ القصيةِ بفضلِ تلك الزوايا ــ الكثيرَ من شؤونِ دينِهم ودنياهُم.

ثم آلتْ رئاسةُ السنوسيةِ بعدَ مؤسسِها محمدِ بنِ عليٍّ إلى أبرز أعلامِ الأسرةِ السنوسية وهو محمدٌ المهديُّ الذي يُعَدُّ بحقِ الموطدَ الحقيقي للدعوةِ السنوسيةِ في ليبيا، وتُعَدُّ فترةُ زعامَتِهِ العهدَ الذهبيَ لسلطانِ السنوسيين في أواسطِ أفريقية العربيةِ وفي قلبِ الصحراء الكُبْرَى. حتى إنَّ القبائلَ العربية عرفتْ لأولِ مرةٍ منذ عهودٍ طويلةٍ فضيلة الوحدةِ بعدَ طولِ تشتتٍ، وفضلَ الوئامِ بَعْدَ عهودٍ مِنَ الخصامِ. وأصبحَ أفرادُ هذه القبائلِ الأشداء يشكلون نواةً طيبةً لقوة مُحاربةٍ فعالةٍ تَعُدُّ نحو أربعينَ أو خمسينَ ألفَ مقاتلٍ، بوسعِها أن تُسْهِمَ إسهاماً فعالاً في توجيهِ الأحداثِ والمشاركة بقوةٍ في رفدِ حركةِ النضالِ ضِدَ أعداء البلادِ.

من التعليم إلى الثورة

في زاويةِ السنوسية بواحة الجغبوب، معقلِ الإمام محمدٍ المهدي كانَ يعيشُ طالبُ علمٍ يافعٍ اسمُهُ عمرُ، وقد أوفدَهُ والدُهُ المختارُ إليها لينهل من معينِ القُرآن وعلومِهِ وليتلقى ما يتيسرُ لَهُ مِنْ دراسةِ الفقهِ والشريعةِ.

وعمرُ بنُ المختارِ، أو عمرُ المختارُ مِنْ قبيلةِ «المنفة» أكبرِ القبائلِ العربيةِ في ليبيا. وقد وُلِدَ سنةَ ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في قريةِ (البَطان) بإقليمِ برقةَ، حيثُ نَمَتْ فيه نوازعُ الكرامةِ والحريةِ، وبرزَتْ في نفسِهِ خصالُ الشهامَةِ والفروسيةِ.

وقد تجلّتْ نباهتُهُ بينَ أقرانِهِ، وانتزعَ إعجابَ الزعيمِ المهدي، فقربَهُ ورعاهُ، وما لبثَ أنْ جعلَهُ في عدادِ أبرزِ أعوانِهِ، وواحداً من ألمعِ دعاتِهِ.

ثم اختارَ السيدُ المهدي عمرَ المختار ليكونَ شيخَ (زاويةِ القصورِ) في منطقةِ «الجبلِ الأخضرِ» الواقعةِ شِماليَّ البلادِ والقريبةِ من البحرِ الأبيض المتوسط.

والجبلُ الأخضرُ مجموعةٌ من المرتفعاتِ الخضر حباها اللهُ شجراً وفيراً، وماءً غزيراً، ووهبَها أبْهَى حلةٍ من جمالِ الطبيعةِ وفتنتِها.

والجبلُ الأخضرُ في الوقتِ نفسِهِ كثيرُ الشعابِ شديدُ الوعورةِ، يتطلبُ من سالكيه قدراً كبيراً من الخبرةِ والدرايةِ ولا سيما لدى اجتياز غاباتِهِ الكثيفةِ ووديانِهِ السحيقةِ.

وفي سفوحِ ذلكَ الجبلِ الأخضر بدأ نجم عمر المختار يعلو، ومنزلتُهُ في النفوسِ تسمو، ولم يعدْ مجردَ معلمٍ أو شيخٍ بل غدا رجلاً ذا شأن، يلوذُ به الفقراءُ وعابرُو السبيلِ ليستعينوا به على شؤونِ دنياهم، و يلجأ إليهِ الأعرابُ المتخاصمونَ لفضِ منازعاتهم.

وهكذا استفاضَ ذكر عمر المختار بينَ الناسِ، وعظمَ شأنُهُ لدى القبائلِ وظهرَ من رجاحةِ عقلِهِ، وسدادِ رأيِهِ، وسعةِ أفقِهِ، وشدةِ مهابَتِهِ ما حَبَّبَهُ إلى القاصي والداني.

وكانَ من حصيلةِ ذلك أن أجمعَ الناسُ على إجلالِهِ وارتضَوهُ لهم زعيماً يقودُهم في الملماتِ و يُعتمدُ عليهِ وقتَ الأزماتِ. حتى إنّ أفرادَ قبيلةِ «العبيد» الذين عُرِفُوا بشدةِ بأسِهم وقوةِ مِراسِهِم، وَحِدَّةِ طِباعِهِم، قد أسْلَسُوا له قيادَهم، ووطؤوا

أكنافَهم، فوقفوا وراءهُ صفاً واحداً ينافحونَ عن حمى الإسلامِ، و يذودون عن حياضِ الوطنِ.

وكأنَّ الله قد هيأ هذا الشيخَ العالمَ ومن ورائِهِ أولئكَ القومُ الأشداء ليكونوا شوكةً حادةَ في جنبِ الغزاةِ، وسيفاً مصلتاً في وجهِ الطامعين.

أمّا عمرُ المختار الذي كان يشقُ طريقَه سريعاً نحو زعامةِ قومِهِ، فقد امتلكَ القلوبَ، وأسرَ النفوسَ، حتى دانَتْ له الرقابُ فمن جنباتِ (المساجدِ والزوايا) ونطاقِ الإرشادِ والتعليمِ مضى عمرُ المختار إلى رحابِ الجهادِ والنضالِ، وإلى غمارِ التمردِ والثورةِ. بل إنَّ حياتَهُ كانت قسمةً بين العقيدةِ والعملِ، وصورةَ جديدةَ من السلفِ الصالح بعد أن نَذَرَ نفسَهُ لله والوطنِ.

طبول الحرب

حين تدفقَتْ جيوشُ المستعمرينِ وأساطيلُهُم ومن ورائِها شركاتهم واحتكاراتهم باتجاهِ بلادِ آسية وأفريقية منذُ فجرِ القرنِ التاسعَ عشرَ، بدا جلياً أنّ لعابَ دول الغرب كانَ يسيلُ لامتلاكِ ثرواتِ الشرقِ، حتى لكأنّ سباقاً ضارياً أخَذَ يجري بين ساسةِ هذهِ الدولِ الجشعين للسيطرةِ على ربوع الشرقِ الآمنةِ وخيراتِها الكامنةِ.

وقد كانَ لدولةِ بريطانيا العُظمى مِنْ ذلك أوفى نصيبٍ، إذ احتلَتْ مِنْ البلدانِ أضعافَ مساحاتِ بلادِها، وأخضعَتْ من الشعوبِ أضعافَ أعدادِ

سُكانِها، وكانَ نصيبُ فرنسا من ذلك كبيراً أيضاً في أفريقية السوداء وفي الهند الصينية. حتى هولندا وبلجيكا كان لهما هجمةٌ بقصدِ الحصولِ على حصةٍ من الفريسة.

أما إيطاليا فقد حزَّ في نفوسِ ساستِها أن يكونوا في مؤخرةِ الذئابِ لا يكادون يحظونَ مِنْ تلكَ الغنائم بأدنى نصيبٍ.

والسببُ الرئيسيُ الذي كانَ يسوقُ إيطاليا في طريقِ العدوانِ على ليبيا هو في حقيقةِ الأمرِ الشعورُ بالنقصِ. فاتجهَتْ أنظارُ قادتِها إلى ضرورةِ التوسعِ الخارجي، حتى تستطيعَ إيطاليا أن تزعمَ بحقٍ أنها إحدى الدولِ العُظمى. فالإخفاقُ الذريعُ الذي مُنيتْ بهِ الهجمةُ الاستعماريةُ الإيطاليةُ على بلادِ الحبشةِ سنةَ ١٨٩٦ أورثَ حكامَ روما المرارةَ الشديدةَ. فقد

كانت هزيمتُهم قاصمةً في معركةِ (عدوة). وإزاء هذه الصدمةِ التي حطَّمَتْ آمالَ الإيطاليين في إنشاء أمبراطوريتِهِمُ المنشودة في أفريقيا الشرقية أخذَتْ أنظارُهم تتجهُ إلى أفريقية الشمالية.

كان العسكريونَ الإيطاليونَ يتململون داخلَ جزيرتِهم، وضمنَ (الجزمة) الإيطالية، ونفوسهم تتحرقُ غيظاً لعملِ أي شيء تُجاهَ شَعبِهِم يبررون بِهِ وجودَهم، ويمحون عارَ هزيمتِهِم. وهكذا اختاروا ـ كما خُيلَ إليهم ـ حلقةً ضعيفةً في سلسلةِ البلادِ الواقعةِ على شريطِ الساحلِ الأبيضِ المتوسطِ، فضلاً عن قربِها الشديدِ من شواطىء إيطاليا بحيثُ تغدو لهم سهلةَ المنالِ، يسيرةَ الاحتلالِ. ولم تكن الفريسةُ المرصودةُ سوى بلاد ليبا أو طرابلس الغرب. لقد كانَ حكام إيطاليا يأملونَ أن يجعلوا من هذه الربوع

العربيةِ امتداداً لبلادِهم، ومجالاً حيوياً لمطامعِهِم. وواضحٌ أنَّهم في ذلك إنّما كانوا يحتذون حذوَ فرنسا التي سبقَ لها أن قامَتْ باحتلالِ بلادِ الجزائرِ ودأبَتْ على جعلِها أرضاً فرنسيةً.

وهكذا كانَ المستعمرون يخطِّطون لابتلاعِ بلادِ العرب على امتدادِ شواطىء الشّمالِ الأفريقي وسواحل بلادِ الشام بهدفِ جعْلِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ بحيرة غربية.

كانت أساليبُ الاستعمارِ معهودةً، إذ بدأتْ إيطاليا نشاطَها المشبوهَ في ليبيا تحتَ ستارِ المؤسساتِ الثقافيةِ والإرسالياتِ الدينيةِ والمساعداتِ الاقتصادية، فنشط المبشرون من رجالِ الدينِ في استمالةِ بعضِ السكانِ مُحاولينَ إغواءهم بشتّى السبلِ كي يتحولوا إلى العقيدةِ الكاثوليكيةِ التي تحتضنُها روما.

أما المدارسُ فقد كانت تدأبُ على بثِّ سمومِها بين الناشئةِ بقصدِ سلخِ مَنْ يُمْكِنُ سَلْخُهُ عن أرومتِهِ وجذورِهِ، وأصلِهِ وتراثِهِ.

حتى إنّ الرأسماليةَ المُسْتَغِلَّةَ دأبَتْ على افتتاحِ فروعٍ (لبنكِ دي روما) في العديدِ من المدنِ الليبيةِ. وما كانَتْ هذه المصارفُ في حقيقةِ الأمرِ إلا أشراكاً هدفُها الإيقاعُ بالناسِ والسيطرةُ على مقدراتِهم وأخيراً امتلاك أرضِهم، لقد شرعوا يقرضون الأهلينَ ما يحتاجون إليهِ من المالِ، و يستغلون في الوقتِ نفسِهِ ظروفَهُم الصعبةَ أبشعَ استغلالٍ. كان الأمرُ يبدو للبسطاء يسيراً، ولكنّه كان يحملُ في طياتِهِ شراً مستطيراً. أجلْ، كانَ في ظاهرِهِ الرحمةُ وفي باطنِهِ العذابُ. فكلُ تأخرٍ عن السدادِ يُعَدُّ إخلالاً بالشروطِ، ونكولاً عن الالتزاماتِ. وعندَ ذلكَ لا

مفرَّ منْ أخذِ الأرضِ المرهونةِ استيفاءً للدينِ المستحِقِّ. ويصبحُ بنكُ روما هو مالكَ الأرضِ ووارثَها، كما يغدو ابنُ الوطن صفرَ اليدين غريباً في بلدِهِ.

كلُ ذلك كان يجري وعاصمة الدولةِ العثمانيةِ تبدو وكأنَّها في غفلةٍ عن خيوطِ المؤامرةِ الرهيبةِ، فقد كانَ واليها علىٰ إقليمي طرابلس وبنغازي أضعفَ مِنْ أنْ يفعلَ شيئاً في مواجهةِ هذا الخطرِ الداهم.

وفي الوقتِ نفسِهِ ظلّت إيطاليا تعملُ ـــعلى الصعيدِ السياسيـــ في سبيلِ تحقيقِ حُلُمِها الملحِّ، وهو احتلالُ البلادِ الليبية وإعادةُ مجدِ الأمبراطوريةِ الرومانيةِ. وهكذا، وبعدَ ضغوطٍ ومساوماتٍ حصلَتْ إيطاليا سنة ١٩٠٤ على إقرارٍ من دولِ أوروبا الكبرى وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا يتضمّنُ إطلاقَ يدِ إيطاليا في طرابلس

الغرب. وكان ذلك في مقابلِ تغاضي إيطاليا عن إطلاقِ يدِ فرنسا في بلادِ المغربِ.

وفي أثر ذلك شرَعتْ إيطاليا في تنفيذِ المرحلةِ الثانيةِ من خطتِها الخبيثةِ تُجاهَ ليبيا، ترسلُ الهيئاتِ والشركاتِ إلى ربوعِ برقةَ وطرابلسَ بقصدِ الكشفِ عَنْ معالِمِها وَسَبْرِ أغوارِها، وتقديرِ ثرواتِها، بَلْ إنّها عَمَدَتْ إلى مسحِ أراضيها ورصدِ أحوالِها، وكأنَّ البلادَ أرض "إيطاليةٌ يتصرفون بمقدراتِها وأنّه ما من شعبٍ يعيشُ منذُ الأزلِ فيها.

وفي عام ١٩٠٨ بدا لِحُكّامِ إيطاليا أنَّ الفرصةَ باتَتْ مواتيةً لتوجيهِ الضربَةِ المنتظرةِ، مُنْتهزين مظاهرَ الضعفِ والاضطرابِ التي كانَتْ تعانيها الدولةُ العثمانيةُ داخلَ أسوارِها نفسها. غيرَ أنَّ الآستانة

بادرَتْ إلى إرسالِ كتائب من الجيشِ العثمانيّ إلى شواطىء ليبيا تعزيزاً لحاميتِها. وإذ ذاك لم يجد الإيطاليون بداً من أنْ يَعدلُوا عن مطلَبِهِم إلى حينٍ، و ينكفئوا إلى بلادِهم انتظاراً لفرصةٍ أخرى.

ذريعةُ الذئبِ وشريعةُ الغابِ

كان الحُكّامُ الإيطاليون يبدون وكأنَّ صبرَهم قد قاربَ النَّفادَ، لقد مضَتْ ثلاثُ سنواتٍ على محاولتِهِمُ الأولى التي كانَتْ مجرَّدَ سبرٍ للقوةِ المضادةِ واختبارٍ لردَّةِ الفعلِ. أمّا الآن فقد اعتزموا هذه المرةَ تنفيذَ المهمةِ العسكريةِ التي كانوا يهيئونَ أسبابَهَا منذُ زمنٍ بعيدٍ.

في مطالعِ خريفِ عام ١٩١١، وعلى وجهِ التحديدِ في يومِ الأربعاء ٢٧ أيلول وجَّهَتِ الحكومةُ الإيطاليةُ إنذاراً إلى حكومةِ الأستانةِ تهدِّدُ فيه وتتوعدُ. لَقَدْ كانَ إنذاراً عجيباً على عادةِ

المستعمرينَ، إنَّهُ منطقُ القُوَّةِ وسلوكُ الغدرِ وشريعةُ الغابِ. وقد جاء فيه:

«يا صاحبَ الدولةِ»

«ما انفكَّتِ الحكومةُ الإيطاليةُ منذُ سنينَ تذكِّرُ (الباب العالي) بضرورةِ وضعِ حدٍّ لسوءِ النظامِ، وإهمالِ الحكومةِ العثمانية في طرابلسَ وبنغازي، وإنالة هذهِ البلاد ما تتمتعُ به جميعُ أقسامِ أفريقية الشِّمالية. وهذا التغييرُ الذي يقتضيهِ التمدُّنُ يضعُ المصالحَ الحيويةَ الإيطاليةَ في الاعتبارِ الأولِ، بالنَظرِ لقصرِ المسافَةِ بينَ تلكَ البلادِ والشواطىء الإيطالية».

«لقد كانَتْ حكومةُ البابِ العالي تُبْدِي حتى الآن عِداءً نحو الحركةِ الإيطاليةِ الشرعيةِ في طرابلسَ

وبنغازي، حتى أصبحَتِ الحالةُ في طرابلسِ الغربِ عظيمةَ الخطورةَ بسببِ التحريضِ العامِّ ضدَّ الطليان».

لكلِّ ذلك ولمّا كانت أيّةُ مفاوضات بقصدِ الوصولِ إلى تسويةٍ وديّةٍ لم تَعُدْ تُجْدي نفعاً، وأنّه لم يعُدْ ثمةَ مَجالٌ لإعطاءِ إيطاليا أية امتيازات من أجلِ إنهاءِ هذه الأزمةِ المفتعلةِ. فإنَّ حكومةَ إيطاليا تجدُ نفسَها مضطرةً إلى المحافظةِ على شرفِها ومصالِحِها. ولذلك قررتْ أنْ تحتلَ طرابلسَ وبنغازي احتلالاً عسكرياً، فذلك هو الحلُ الوحيدُ. وهي تأملُ في أنْ تصدرَ الحكومةُ السلطانيةُ أوامرَها حتى لا تواجهُ إيطاليا في الاحتلالِ مُعارضةً مِنْ رجالِ الحكومةِ العثمانيةِ.. وبعدَ ذلك تتفقُ الحكومتانِ على تقريرِ الحالةِ اللازمةِ. وعلى حكومةِ البابِ العالي أنْ ترسلَ

الجوابَ الحاسِمَ خلالَ أربعٍ وعشرين ساعةً. وإلا اضطَرتِ الحكومةُ الإيطاليةُ إلى القيامِ بجميعِ الأعمالِ التي تضمنُ تحقيقَ الاحتلالِ».

صحيحٌ أنّ الدولةَ العثمانيةَ أهملَتْ شؤونَ الشعبِ ومصالِحَهُ في ليبيا وتركَتْها في حالٍ من الفقرِ والفوضى، كما كانَ حالها في سائرِ بلادِ العربِ التي تحكُمُهَا. ولكنْ مَن الذي جعلَ إيطاليا وصيةً على ليبيا، بل ما هذه المشاعِرُ الإنسانيةُ الفياضةُ التي تجلَّتْ في قلوبِ حُكّامِ إيطاليا اشفاقاً على جارتِهِمُ العزيزةِ ليبيا، حتى إنَّهم لم يعودوا يطيقون صبراً على ما يعانيهِ الليبيون من وطأةِ الحرمانِ والفسادِ، وفي هذه الحالِ ألا تقتضي الشهامةُ إنقاذَ سكانِ ليبيا وإخراجَهم من وضعِهِمُ المتردي..؟

وأيةُ حركةٍ إيطاليةٍ شرعيةٍ في طرابلسَ

وبنغازي؟ وأيةُ مصالحَ مزعومةٍ لإيطاليا في هذه الربوعِ العربيةِ؟ وكيف أنَّ مناهضتَهَا جعلَتِ الحالةَ عظيمةَ الخطورةِ بحيثُ أصبحَتْ تهدِّدُ إيطاليا نفسَهَا..؟

أفلا يحقُّ لحكومةِ إيطاليا بعدئذٍ أنْ تبادرَ ــ كما قالَتْ ــ إلى المحافظةِ على شرفِها، ثم أنْ تحتلَّ ليبيا صوناً لكرامتِها. يضافُ إلى ذلك هذا المطلبُ الحقُّ وهو ألا يعترضَ أحدُ أسطولَ إيطاليا وجيشَها، أليسَ الاحتلالُ مهمةً إنسانيةً تقتضيها رسالةُ التمدن.

وإذا كان الأمرُ مُلِحّاً إلى هذا المدىٰ والحالةُ خطيرةٌ إلى هذه الدرجةِ فلا بُدَّ من ورودِ الجواب الحاسم خلال ٢٤ ساعةً فقط، وإلاّ...

هذا هو منطقُ المستعمرينَ المعهودُ وذلك هو السلوكُ المألوفُ. حدثَ ذلك أيضاً مِنْ قبلُ في

الجزائرِ مع حكومةِ الداي، ثم حدثَ ذلك من بعدُ قُبَيلَ احتلالِ غورو لدمشقَ في إثرِ معركةِ ميسلونَ.

أجل، إنّها حكايةُ «الحَمَلِ والذِّئبِ» التي تتكررُ عبرَ العصورِ، وفي كلِّ أرضٍ تَحْتَ الشمسِ. لقد شربَ الحَمَلُ الوديعُ من مياهِ الغديرِ فكدرَها في زعمِ الذئبِ، وبذلك حلَتْ عليهِ اللعنةُ وحقَّ افتراسُهُ.

أما الدولةُ العثمانيةُ فقد كانَتْ في حالةٍ يُرثَى لها بعدَ أنْ توالَتْ عليها المحنُ واصطلحَتْ عليها النكباتُ فلم تعدْ تقوىٰ على المواجهةِ والتصدِّي، بلْ لم يعدْ بوسعِها فعلُ شيء. فماذا كانَ ردُّها تُجاهَ تلك الصفعةِ المهينةِ، وماذا فعلَتْ في وجهِ هذا التحدِّي الوقحِ.؟

كان جوابُ (الباب العالي): أنَّ هذه البلادَ

عثمانيةٌ لا تتخلى عنها حكومةُ الأستانةِ. وأنَّهُ ليسَ على الإيطاليينَ فيها مِنْ خطرٍ البتةَ. وأنّ الاستعداداتِ التي تقومُ بها إيطاليا ــ التي تربطُها بالدولةِ العثمانيةِ علاقاتٌ وديةٌ ــ تتنافى مع عواطف الولاء.. إنَّ الحكومةَ العثمانيةَ تُبدي استعدادَها لإقامةِ حوارٍ مع حكومةِ روما حولَ المطالب. أمّا إذا رفضَتْ إيطاليا وتابعَتْ مقاصدَها، فإنَّ حكومةَ الباب العالي في الأستانةِ سوفَ تقومُ عندئذٍ بما يمليه عليها الواجبُ.

جوابٌ طافحٌ بالاستكانةِ والتخاذلِ، أين منه لهجةُ ذلك الإنذارِ الممتلىء بالصلف والتحدي. وما من شكٍّ في أنَّ حكامَ روما قد لمسوا الآن لمسَ اليدِ مدى ضعفِ الآستانةِ بل عجزَها عن التصدّي للحملةِ الإيطالية المرتقبةِ. وحين يبلغُ الوهنُ بالجسدِ

هذا المبلغَ فمن اليسيرِ على الجرثوم أنْ ينقضَّ عليه ويشرعَ بافتراسِهِ.

وهكذا كان الردُّ الرسميُّ للآستانةِ على الإنذارِ الإيطالي بمثابة مؤشِّرٍ واضحٍ لإمْكانِ الشروع بالعملِ العسكريِّ الحاسمِ، أو أنَّهُ بمثابةِ نتيجةٍ مُشجِّعةٍ لمحاولةِ الاختبارِ وجسِّ النبضِ التي رمى إليها حُكَّامُ روما، فكانَ لهم ما توقَّعوهُ، ولا عليهم الآن إذا مضَوا فيما بيَّتوهُ من أمرٍ.

ومع أنَّ جوابَ الآستانة على الإنذار وردَ بعدَ يومينِ فقط أيْ يومَ الجمعةِ في ٢٩ أيلول ١٩١١، ومع أنَّهُ ردٌّ ينطوي في نهايتِهِ على تركِ البابِ مفتوحاً للتفاوضِ بينَ الطرفين، فقد سارعَ حُكّامُ روما إلى إصدارِ بلاغٍ مقتضبٍ تضمَّنَ قطعَ العلاقات مع الاستانةِ، وإعلانَ الحرب، وذلك بدعوى انتهاء أجلِ

الإنذارِ الذي حدّدَ مهلةَ الجوابِ بـ ٢٤ ساعةَ دون أنْ تتلقّى الحكومةُ الإيطاليةُ من الأستانةِ رداً مرضياً. أمّا ورودُ جواب الإنذارِ بعد ٤٨ ساعةً فقد اعتبرَ غيرَ ذي موضوعٍ وقوبلَ بالتجاهلِ.

أمّا ما جاء في إجابةِ حكومةِ البابِ العالي مِنْ أنَّ الحكومة العثمانية سوف تقومُ بما يتوجبُ عليها إذا رفضَتْ إيطاليا الجنوح للسلمِ وأصرَّتْ على اتباع مقاصدِها، فلم يكن سوى كلامٍ من رفعِ العتبِ في غمارِ عباراتِ المسكنةِ والمذلةِ. وقد صحَ حدسُ الإيطاليين..

والواقعُ أنَّ السلطانَ العثمانيَ «محمد الخامس» كانَ حسنَ النية ينطوي على حميَّةٍ دينيةٍ صادقةٍ، إلاّ أنّهُ لم يكن لديه من حولٍ ولا قوةٍ. صحيحٌ أنّهُ يملكُ ولكنه كان أضعفَ من أن يَحْكُمَ. أما حكومتُهُ التي

يرئسُها «حقي باشا» فلم تكنْ تأتَمِرُ بأمرِهِ، بل كانَتْ تهيمنُ عليها «جمعيةُ الاتحادِ والترقي» ذاتُ النزعةِ التركيةِ الطورانيةِ[1]، فلم تكن لتأبَهَ لما يحلُّ بالعربِ أو ما يسلخُ من بلادِهم.

وهكذا مضت في سياستِها القائمةِ على إهمالِ شؤون ليبيا وتقليص حاميتِها العسكريةِ بحجةِ الاقتصادِ في الإنفاقِ. وأصبحَ بوسعِنا القولُ إنَّ الأتراكَ تغاضَوا عن احتلالِ إيطاليا للأراضي الليبية وتركوها، كما تركوا سواها من بلادِ العربِ لقمةً سائغةً للمستعمرينَ.

---

(١) الطورانية: نزعة تركية متعصبة، وهي منسوبة الى طوران شاه الجد البعيد للأتراك العثمانيين.

الغزو الإيطالي

حين قامَتْ إيطاليا بقطع العلاقاتِ مع الدولةِ العثمانيةِ وإعلانِ الحربِ عليها، كانت سفنُ الأسطولِ الحربيِّ قد غادرَتْ سلفاً موانىء إيطاليا الجنوبية قاصِدَةً إلى شواطىء ليبيا، حتى إنها بدأت تظهرُ في المياهِ الليبية منذ مساء يوم الخميس ٢٨ أيلول ١٩١١، أي قبلَ مَوعدِ انتهاء أجلِ الإنذار. وهذا يعني أنّ أمرَ الحربِ كان مبيتاً قبل أمَدٍ طويلٍ، وأنّ الإنذارَ على شدَّتِهِ كان تغطِيَةً وذريعة. يُضاف إلى ذلك أنّ انتشارَ سفنِ البحرية الإيطالية في مواجهة الساحلِ الليبيِّ كان بمثابة حصارٍ يُقْصَدُ

منه الحيلولة دون وصولِ أيَّةِ نجدات عثمانيَّةٍ محتملة بهدفِ تعزيزِ الحامية في موانىء البلادِ.

كانتِ الحملةُ تتألف من ٣٩ ألفِ جنديٍّ و٦ آلاف من الخيل والبغالِ، ونحو ألفِ سيارةٍ، وخمسين مِدْفع ميدان...

أمّا الحاميةُ العثمانِيّةُ التي سحبتْ بعضَ عناصرِها حكومةُ الأستانة قبلَ حينٍ مع وعدِ الحكومةِ المركزيةِ بتعويضها وإرسالِ أعدادٍ بديلةٍ منها، فقد اقتصر عَدَدُ أفرادِها على ٥ آلافٍ في مِنْطَقَةِ طرابلسَ وألفين في برقةَ. وكان في البلاد عدّةُ آلافٍ من البنادق استردَّتْها أيضاً الحكومةُ في الأستانة واعِدَةً بإرسال بنادقَ أخرى بعَدَدِها من نوع (موزر) الأحدثِ طرازاً ولكنّ الحملةَ بدأتْ دون أنْ تحظى ليبيا بما تحتاجُ إليه من رجالٍ وسلاح.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كانت تتمتَّعُ به الحملةُ الإيطاليةُ، بالإضافة إلى تفوُّقها في العَدَدِ والعتادِ والذخائرِ، من حسن تدريب ونظام، في مُقابِلِ ما كانت عليه الحامِيَةُ العثمانية من تأخُّرٍ وجمودٍ، أدركنا الهوَّةَ السحيقةَ بين الطرفين المتقابلين.

وتبعاً لكلِّ ذلك كان يترءاى لحُكّامِ روما يوماً بعد يومٍ أنّ الحربَ سوف تكون سهلةً، وأنّ المدنَ الليبية سوف تتهاوى سِراعا، وتغدو البلادُ خلال أيامٍ قليلةٍ في قبضة المهاجمين.

في يوم الاثنين بتاريخ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) طلب القائدُ الإيطاليُّ من الحاميةِ العثمانية أنْ تستسلِمَ. فطلبَتِ الحاميَةُ بدورها مُهْلَةً تتيحَ لها الاتصالَ بمراجِعِها العُليا في الأستانة العاصمة. كما حذَّرَ قائدُها المهاجمين من مغبة أيِّ

تصرف طائشٍ قد يؤدّي إلى إثارةِ ردود فعلٍ لدى السُّكّانِ تُجاه أفرادِ الجاليات الأوروبية، ولا سيما الجالية الإيطالية نفسها.

وفي اليوم التالي عاد الجوابُ هذه المرة قصفاً بنيرانِ البحريّةِ تُجاه مدينةِ طرابلسَ، وانطلقَتِ القذائفُ في سماء المدينةِ وقتَ العَصرِ من يوم الثلاثاء ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١١. واستمر أيضاً خِلالَ اليوم التالي، الأربعاء ٤ تشرين الأول (اكتوبر).

كان على الحاميةِ العُثْمانيةِ المُدافِعَةِ أنْ تتصدّى للغُزاةِ، ولكنّها لم تستطعِ الصُّمودِ في مواقعِها سوى ساعاتٍ قليلةٍ، إذ أنّ مدافعَها العتيقةَ من طراز (كروب) كانتْ قصيرةَ المدى فلم يكن بوسعِ قذائفِها أنْ تنطلقَ إلى مرمى السفنِ الحربيّةِ الجاثمةِ

في مواجهة المدينةِ، وهكذا بادرَتْ إلى الانسحابِ السريعِ لتُعيدَ تمركزَها في جنوبِ المدينةِ.

وفي اليوم الثالث من بدءِ القصفِ البحريِّ أيْ في ضحى الخميس ٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١١ قام الأسطولُ الإيطاليُّ بعمليةِ انزالٍ على البرِّ الليبي في طرابلسَ كان قوامُها نحو ألفين من البحارة. ولم تلقَ هذه القُوَّةُ أيَّةَ مقاومةٍ تذْكرُ. وتوالَتِ الإمداداتُ من البحر تِباعاً، تعزيزاً للقُوَّاتِ الغازيةِ، حتى بلغ عَدَدُها في مدينةِ طرابلسَ وحدها ٣٠ ألفَ جنديٍّ.

وتوالى قصفُ المدنِ الساحلية الأخرى على امتدادِ الشواطىء الليبية. واستطاعَتِ البحريةُ الإيطالية احتلالَ ميناء طبرق في ٢٤ تشرين الأول ١٩١١. ثم نزلت في (درنة)، وبعد ذلك في مدينةِ

بنغازي. وفي بنغازي اطمأنَّ الطليانُ بعض الشيء على أنفسِهم متدرعين بأسطولِهِمُ الحربيِّ.

وسرى نبأ الهجوم بين فئات الشعبِ سريانَ البرقِ، وحدث في النفوس هيجانٌ شديدٌ. وبدا الناسُ وكأنّهم كانوا في غَفْلَةٍ ثم راحوا يستيقظون على دوِيِّ المدافعِ، ويفتحون عيونَهم على أهوالِ الواقعِ.

وبدأتْ عناصرُ المقاومة تتجمعُ وترفد الحاميةَ النظاميةَ المتمركزةَ في جنوب المدينة.

أمّا في سائرِ المدنِ الساحِليَّةِ فقد واجه البحارةُ صعوباتٍ لم يتوقعوها، إذ ما كادوا يطؤون الترابَ الليبيَّ حتى وُوْجِهُوا بضرباتٍ مُتفرِّقةٍ كانت جديرةً بأن تزعجَهُم وتقضَّ مضاجِعَهُم. وهكذا كان عليهم

أنْ يتضامّوا فيما بينهم و يقبعوا ضمن استحكاماتٍ أعدُّوها ليكونوا في مَنْجىً من أعمالِ الكرِّ والفرِّ التي كانتْ تمارسُها كتائبُ المجاهدينَ ضِدَّهم.

والحقُّ أنَّ عدداً من نبهاء الضباطِ العثمانيينَ المرابطينَ في ربوعِ ليبيا قاموا منذُ ذلك الحين بدورٍ فعَّالٍ في تعبئةِ قوى النضالِ وتنظيمِ وحداتِ المجاهدينَ وكان في مقدمتِهم عَدَدٌ من الضباطِ العربِ والأتراكِ مثْلِ عزيز علي المصري وأدهم الحلبي وأنور بك ومصطفى كمال (أتاتورك)...

وهكذا تَم تجهيزُ قُوَّةٍ عاجلةٍ قوامُها قرابةُ ١٥ ألفِ مقاتلٍ تجمَّعُوا في مناطقِ الساحلِ ولا سيما في منطقتي طرابلس و بنغازي خلالَ فترةٍ قصيرةٍ.

أمّا في الداخلِ، وعلى الأخصِ في مرتفعاتِ

الجبلِ الأخضرِ فقد كانتِ الحماسةُ أبلغَ، إذ عمدَ عمرُ المختار شيخُ (زاوية القصور) إلى استنفارِ جماعتِهِ وجلِّهم من رجالِ القبائل الأشداء. فكانَ ذلكَ خيرَ مَدَد شدَّ أزرَ سائرِ المجاهدينَ. ولم تمضِ مُدَّةٌ يسيرةٌ حتى استطاعَ المقاتلون العربُ في هذه المِنْطَقَةِ من إيقافِ المعتدين تُجاهَ بنغازي.

وفي معظمِ المناطقِ لم يكنِ النزولُ على البرِ الليبيِّ يسيراً على القواتِ البحريةِ، ولم يكنْ ذلك يتمُّ في غالبِ الأحيانِ إلا نتيجةَ اشتباكاتٍ عنيفةٍ تكلِّفُ المحتلين ثمناً غالياً، وحتى حين يتاح لهم ذلك، فلم يكنْ في مقدورِهم ــ إذا تمكَّنوا من احتلالِ رقعةٍ ما ــ أنْ يحتفظوا بها طويلاً دونَ تقديمِ العديد من الضحايا، وكانوا بالإجمالِ كلمّا حاولوا التوغلَ وتوسيعَ رقعةِ احتلالِهم ازدادتِ المقاومةُ في وجهِهِم ضراوةً.

وقد استطاعَ عربُ ليبيا في الأسابيعِ الأولى من الاحتلالِ أنْ يلتحموا بكتائبِ العدوِّ في معركةٍ كبيرةٍ انجلَتْ عن ارتدادِ المعتدين إلى خطوطِهِمُ السابقةِ بعد أن نزلَتْ بجُنودِهم وعتادِهم خسائرُ فادحةٌ. وكانوا لا يكفون عن طلبِ النجداتِ من بلاد إيطالية فلا تمضي مدةٌ يسيرةٌ حتى يأتيَهُمُ المَدَدُ المطلوبُ. حتى لقد بلغَ مَجموعُ أفرادِ قواتِهِمُ المسلحةِ في الربوعِ الليبية ١٢٠ ألف جنديٍّ نظاميٍّ، كلُّهم مدربٌ على القتالِ ومجهزٌ بأفضلِ العتادِ.

وتبعاً لذلك كلِّهِ استطاعَ المجاهدونَ العربُ في أكثر المناطقِ إيقافَ الزحفِ الإيطاليِّ أو حصرَهُ في بقاعٍ محددةٍ لا تتعدى عدداً من المدنِ والموانىء.

نفيرُ الجهادِ

ما كادتْ أخبارُ ذلك الحَدَثِ المشؤوم التي نقلَتْ نزول جنودِ البحريةِ الإيطاليةِ في البرّ الليبيِّ تلامسُ أسماعَ الشعبِ العربي في أرجاء البلادِ حتى غَلَتِ النفوسُ وتفجَّرَتِ الحميةُ وتجلى الإباءُ.

لقد استنفرَ زعماءُ السنوسيةِ في مختلفِ المناطقِ شيوخَ الزوايا للجِهادِ. وراحَ الشبانُ ينخرطون في صفوفِ المجاهدين أفواجاً.

كان شيخُ زاويةِ (المرجِ) أولَ من خرجَ للقِتالِ، إذ استنفرَ قبيلةَ (العرفا) التي كان شيخاً

على زاو يتها، كما استنفر قبائلَ أخرىٰ قريبة. و بذلك استطاعَ أنْ يرفدَ حاميةَ بنغازي، برجالٍ ذوي شأن. وحينئذٍ أمكَنَ التصدّي للمعتدين الذين توغلوا باتجاهِ الجنوبِ فأرغموا على التقهقر واللوذِ بميناء بنغازي. وفي بنغازي اطمأنَ الطليانُ إلى حمايةِ أسطولِهم.

أمّا عمرُ المختارُ فكانَ في ذلكَ الحينِ يزورُ زعيمَ السنوسيةِ الكبيرَ الشيخَ أحمدَ الشريفَ ببلدةِ (الكفرة) المقرِ الجديدِ للسنوسية وما لبثَ ـ حين علمَ نبأ الاحتلالِ ـ أنْ هرع إلى مقرِّهِ زاو يةِ «القصورِ» بالجبلِ الأخضرِ. وهناكَ في تلكَ المرتفعاتِ الوعرةِ أهابَ بقبيلةِ (العبيد) الكبيرةِ ـ وكانت طوعَ بنانِهِ ـ بأنْ تهبَّ للذودِ عن حمى الدينِ وحياضِ الوطنِ.

ثم تَبعَ عمرَ المختارِ سائرُ شيوخ الزاو يا من

السنوسيين، فالتفوا حولَهُ وأسلموهُ زمامَ الأمورِ وعقدُوا لَهُ لواء الزعامةِ.

وفي هذا الحين عمدَ السيدُ أحمدُ الشَّريفُ زعيمُ السنوسيةِ إلى إصدارِ منشورٍ ثوريٍّ مطولٍ وأرسلَهُ إلى أتباعِهِ مشايخِ الزوايا وزعماء القبائلِ مُعْلِناً الجهادَ المقدس: «واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم»، «إنّ اللهَ لا يحبُ المعتدين».

ومنذُ اليوم تدخلُ الحربُ الإيطاليةُ الليبيةُ في مرحلةٍ جديدةٍ، فقد أخذَتْ جموعُ المجاهدين تتدفقُ على مَيْدانِ القتالِ، وأخذَتِ الاشتباكاتُ العنيفةُ مع فِرَقِ الطليانِ تكتسبُ طابعاً عنيفاً، ولا سيما منذُ مطلعِ شتاء عام ١٩١١ أيْ خلالَ الشهورِ الأولى من الاحتلالِ.

كانَتِ الحربُ سِجالاً بين المُجاهدينَ و بين المعتدينَ يومٌ لهم و يومٌ عليهم. ووقعَتْ معركةٌ كبيرةٌ مظفرةٌ حدثَ خلالَها التحامٌ شديدٌ بين العرب و بين الإيطاليينَ انجلَتْ عن هزيمةِ الأعداء بَعدَ أنْ خلَّفوا وراءهَم ما يزيدُ على ألفِ قتيلٍ، بينهُمُ العديدُ من الضباطِ، فضلاً عن أعتدةٍ كثيرةٍ وذخائرَ وفيرةٍ.

وتوالت الأيامُ من عام ١٩١٢ والإيطاليون يزدادون تورطاً في الحربِ، والخسائرُ تتفاقمُ لدى الطرفين، فقد سقطَ الكثيرون من العربِ والطليان في معاركَ عنيفةٍ متعددةٍ جرى أكثرُها في ظاهرِ بنغازي.

واندلعَتْ معركةُ (النخلتين) وتسمى أيضاً (الفويهات) إثرَ مُحاصرةِ الطليان لمجموعةٍ من المجاهدينَ يبلغُ عددُها ٢٠٠ مقاتل، وعبثاً حاولَتِ

النجداتُ الوطنيةُ بلوغَ مِنطَقَةِ الاشتباكِ. ولم يُفْلِحِ القائدُ عزيزُ علي المصري بمدّ يدِ العونِ للمحاصرينَ بسببِ غزارةِ النيرانِ التي كانَتْ تنهمِرُ من البرِّ والبحرِ. وكان على العرب أنْ يستبسلوا في القتالِ ويستميتوا في الدّفاع، واستطاعَ بعضُهم أنْ ينجو بنفسِهِ تحتَ جنحِ الظلامِ ولم يتجاوزْ عددُهم ٨٠ مجاهداً، على حين سقطَ الباقون وعددهم نحو ١٢٠ مقاتلاً شهداء بعد أنْ أبلوا أحسنَ البلاء.

أمّا الإيطاليون فقد ذاقوا الويلاتِ في معركةِ (الفويهات) هذه، إذ فقدوا نحوَ ألفٍ وخمسمئةٍ من رجالِهِم، وكان بينهم ٢٨ ضابطاً، برتبٍ مختلفةٍ، أحدُهم برتبةِ جنرال. حتى إنّ بعضَ العسكريين أصيبوا بالجنون من هولِ تلك المعركةِ.

وعلى حين كانت النوادبُ والأمهاتُ الثكالى

يندبنَ و يذرفن الدموعَ حزناً على الشهداء الكثيرين الذين سقطوا تحت وطأةِ تلك النيرانِ الكثيفةِ فإن أسلاكَ البرقِ كانت تهتزُ بين العواصم الكبرى: الاستانة ــبرلينــ رومة مُنْبئَةً عن أنَّ وقعةَ (الفويهات) كانت أشدَ المصائبِ على الطليانِ.

وغدا لكلِّ طرفٍ من أطرافِ القتالِ عندَ الطرفِ الآخرِ ثاراتٌ، فلم يعدْ ثمَّةَ مفرٌّ لدى الجميع من المضي في القتالِ حتى النهايةِ.

لقد قرَّ في نفوسِ الطغمةِ الإيطاليةِ الحاكمةِ وهي تُعِدُّ العدَّةَ طو يلاً لاحتلالِ هذه البلادِ أنّها سوف تشنُ عليها حر باً خاطفةً تمكنها سريعاً من إنزالِ قواتِها فوقَ البرِّ الليبيِّ. وقد كانَ في حسابِها أنَّ وقوعَ أهمِ مُدُنِ السَّاحلِ العربيِّ في أيدي قواتِها البحريةَ، ابتداءً بمدينة (زوارة) في أقصى الغرب

وانتهاء بمدينة (طبرق) في أقصى الشرق، وما بينهما: درنة و بنغازي ومصراته والخمس.. كلُّ ذلك سوفَ يتمُّ بيسرٍ وفي وقتٍ واحدٍ. وعندئذٍ يضربُ الاحتلالُ نطاقاً قوياً على امتدادِ البلادِ، وتغدو تلك المدنُ الساحليةُ المحتلةُ والمحميةُ بسفنِ الأسطولِ قواعدَ تنطلقُ منها الجيوشُ الغازيةُ نحوَ داخلِ البلادِ، و ينتهي الأمرُ.

ولكنّ الرياحَ لم تكنْ في تلك الأيامِ تجري بما تشتهي سفنُ البحريةِ الإيطاليةِ.

لقد بدا جلياً لأعينِ زبانيةِ الاحتلالِ، وأيضاً لزعماء المجاهدين على حدٍّ سواء أنّ الصراعَ سوف يكونُ مريراً وطويلاً.

وهكذا، فإنّ ما كانَ يحسبُهُ الإيطاليون ماء لم

يكن في حقيقةِ الأمرِ إلا سراباً. وأنّ ما ظنّهُ حُكّامُ روما من أنّ غزو ليبيا لا يعدو أنْ يكون أشبهَ بنزهةٍ بحريةٍ، لم يكنْ في حقيقةِ الأمرِ سوى مغامرةٍ جمّةِ المخاطرِ، باهِظَةِ التكاليفِ.

بدء الصدام

في صيف عامِ ١٩١٢، وقبلَ أنْ يستكملَ الصراعُ الحادُّ بينَ إيطاليا وليبيا سنتَهُ الأولى، طرأ تطورٌ جديدٌ على مسرحِ الأحداثِ. فالحربُ العثمانيةُ ـ الإيطاليةُ فوقَ الأراضي الليبيةِ العربيةِ بلغَتْ من الوجهةِ الرسميةِ نهايتَها.

لقد أذعنَ العثمانيون لضغطِ الدولِ الأوروبيةِ وأرْغِموا على الدخولِ في مُفاوضاتٍ من أجلِ عقدِ الصُّلحِ مع حُكّامِ روما.

كان حُكّامُ الاستانةِ في أسوأ حالٍ، إذ تفجَّرَتِ

الأحوالُ في مِنْطَقَةِ البلقانِ، وأصبحوا الآنَ في وضعٍ شديدِ الحرجِ. وكان عليهِمْ التصدّي للحركاتِ الانفصاليةِ بالإضافةِ إلى الوقوفِ في وجهِ الغزو الإيطالي لأراضي ليبيا.

ويبدو أنّ ساسةَ الاستانةِ آثروا ــ برغم ترددهم ــ أن يتفرّغوا إلى إطفاء الحريقِ الذي شبَّ بالقربِ من بلدِهم وعاصمتِهم. ولا ضيرَ في نظرِ الحُكّامِ الأتراكِ أنْ تُسْلَخَ مِنْ جسدِ البلادِ العربيةِ قِطعةٌ أخرى بعيدةٌ عنهم مثلُ ليبيا.

لقد اضطرَ العثمانيون نتيجةَ تزايدِ ضعفِهم وتصدُّعِ دولتِهم إلى قبولِ الأمرِ الواقِع، مع قناعتِهم بأنّ التخلي عن ليبيا سوف يسقطُ هيبتَهم في نظرِ شعوبِ الأمةِ العربيةِ وبلدانِ الخلافةِ الإسلاميةِ.

وتمَّ توقيعُ معاهدةِ (أوشي) في لوزان بسويسرا بين ممثلي الحكومتين العثمانية والإيطالية، تعهدَ الطرفان خلالَها بإيقافِ الحربِ الدائرةِ بينهما في ليبيا. وكان على حكومةِ الاستانةِ أنْ تسحبَ ضبَّاطَها وجنودَها وسائرَ موظفيها من ليبيا. وكان ذلك في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٢، أيْ بعد انقضاء سنةٍ كاملةٍ على بدء الهجوم الاستعماريِّ على ليبيا العربيةِ.

وما لبثَ مَلِكُ إيطاليا أنْ أصدرَ منشوراً موجَّهاً إلى الليبيين يبلغهم فيه بأنَّ بلادَهم أصبحتْ خاضِعَةً خضوعاً تاماً للسيادةِ الإيطاليةِ.

غير أنَّ هذا الطارىء الجديدَ ما كان ليفُتَّ في عضدِ الوطنيين، إذ لم يجدوا في هذه المعاهدةِ ما يلزمُهُم ، ولذلك مضَوا في حملِ السَّلاحِ وراحُوا

يتصدَّون بلا هوادةٍ للمحتلين، بعد أنْ أصدرَ زعيمُ السنوسيين السيدُ أحمدُ الشريفُ بياناً أعلنَ فيه استئنافَ الجهادِ المقدسِ ضدَ القواتِ الغاشمةِ.

أما قادةُ إيطاليا فقد بدا لهم أنّ النصرَ قريبٌ وأنّهم لا بُدَّ قادرونَ على حسمِ الأمورِ وتصفيةِ المقاومةِ. وهكذا قرروا تصعيدَ أعمالِهِمُ العسكريَّةِ، فبعدَ أنْ قبعُوا مُدَّةً طويلةً وراء تحصيناتِهم في السَّاحِلِ انطلقوا بقواتِهِمُ البرية في اتجاهِ الداخلِ.

كان احتلالُ مناطقِ الجبلِ الأخضرِ في مُقدِّمةِ خططِهِمُ الجديدةِ، قاصدينَ من وراء ذلك إلى استئصالِ شأفةِ[1] المقاومةِ. فعمد عمر المختارُ

---

(١) يقول العرب استأصل شأفته، أي اقتلعه من جذوره، وأزاله من أصله، والشأفة هي الدمل أو الخراج في الجسم.

وصحبُهُ الأشداء ُمعتصمون في شعابِ الجبالِ يُصْلُون بنيرانِهمُ الحاميةِ على الدوامِ قواتِ العدوان و يقضُّونَ بلا هوادةٍ مضاجعَ الطليانِ.

غير أنَّ هذا المطمحَ لم يكنْ على الأعداء هيِّناً، بل دونَهُ أهوالٌ لصعوبةِ الحركةِ في تلك المناطقِ ووعورةِ الجبالِ.

وقد أعدَّ السيدُ أحمدُ الشريفُ للأمرِ ما استطاعَ مِنْ قوةٍ. وكان عَدَدٌ من الضباطِ العربِ العاملين في الجيشِ العثمانيِّ وفي مُقدِّمَتِهم عزيزُ علي المصري قد بقوا في ليبيا على رأسِ حاميةٍ صغيرةٍ ولم يستجيبوا لتعليماتِ حكومةِ الاستانةِ بالانسحابِ من البلادِ. وانضمَّ عزيزٌ المصريُّ مع جماعتِهِ إلى صفوفِ المجاهدين، وراح يقاتلُ بحنكةٍ ودرايةٍ مُعبئاً قواتِ المقاومةِ على أفضل وجهٍ.

وكان أنْ حنقَ الإيطاليون على عزيز المصري وحذَّروهُ من مغبَّةِ استرسالِهِ في القتالِ برغمِ النصوصِ الصريحةِ لمعاهدةِ الصلحِ مع العثمانيين، ولكنَّهُ لم يأبَهْ لذلكَ وأصبحَ من القادةِ الذين عيَّنَهُمُ الزعيمُ أحمد المهدي السنوسي لمواجهةِ القواتِ المحتلةِ.

وهكذا رفدَ عزيزٌ المصريُّ قواتِ عمرَ المختارِ في الجبلِ الأخضرِ. وبدأتِ الاشتباكاتُ الحادَّةُ بين مفارزِ المعتدين وجماعاتِ المقاومةِ في المِنْطَقَتين الغربية والوسطى في سفوحِ الجبلِ الأخضرِ.

وكانَ أكبرُ هذه الاشتباكاتِ معركةً عنيفةً نشبَتْ في الجبلِ الأخضرِ في ربيعِ عام ١٩١٣، وعلى وجه التحديد يومَ الجمعةِ في ١٦ أيار (مايو) ١٩١٣. وكانت هذه الواقعةُ التي عرِفَتْ باسمِ (واقعة يوم الجمعة) من أشهر معاركِ الجبلِ الأخضرِ في ليبيا.

فقد خاض غمارَها الشيخُ أحمد الشريفُ زعيم السنوسيين بنفسِهِ وساعدُهُ الأيمنُ عمرُ المختارُ، بالإضافةِ إلى عَدَدٍ من الضباطِ العثمانيين السابقين، وأبلى الجميعُ خِلالَ هذه الواقعةِ أحسنَ البلاء. وقد انكفأ الطليانُ تحتَ وطأةِ المجاهدين إلى الارتدادِ نحو مدينةِ (درنة) الساحليةِ تاركينَ في أرضِ المعركةِ عشراتٍ من القتلى.

وقد رفعَ هذا النَّصْرُ من هيبةِ الزعيمِ السنوسي وعززَ مكانَتَهُ في النفوس، وسارَ ذكرُه في الآفاقِ، حتى إنَّ المجاهدين الذين كان عددُ مقاتليهم يقلُ كثيراً عن عددِ الجنودِ النظاميين الإيطاليين، قد اعتقدوا بعدَ هذه الواقعةِ بأنَّ الله قد شدَّ عضدَهم ومنحهم النصر المبينَ.

ولكن عندَ صفوِ الليالي يحدثُ الكدرُ.

المختارُ قائدُ الثورةِ

أخذَ قادةُ الحملةِ العسكريةِ الإيطاليون يُعيدون النظرَ في خططهِمُ الحربيَّةِ السابقةِ التي واجهتْ خلال تنفيذِها صعوباتٍ جمَّةً، إذ لم تستطعْ تحقيقَ أهدافِها كما كان مرسوماً لها. فقد تبيَّنَ لهم أنَّ النطاقَ المضروبَ على امتدادِ السواحلِ الليبيةِ مِنْ قِبَلِ أسطولِ البحريةِ الإيطاليةِ على قُوَّتِهِ لم يكنْ كافياً، لأنَّ الحدودَ الشرقيةَ مع مصر كانت ممراً لعبورِ الكثيرِ من المؤنِ والذخائرِ وأحياناً الرجال إلى المجاهدين الليبيين ولا سيما في ربوعِ الجبلِ الأخضرِ مقرِّ عمرَ المختارِ ورجالِهِ.

وقد عمدَ حُكّامُ إيطاليا، بطريقِ الضغطِ السياسيِّ، سواء على الدولةِ العثمانيةِ أو على انكلترا، إلى استخدامِ ما في وسعِهما لاعاقةِ مسيرةِ المقاومةِ في ليبيا.

وقد أفلحتْ إيطاليا في تحقيقِ غرضين نتيجةً لتلك الجهودِ، أولهما أنّ السلطةَ الإنكليزيةَ في مصرَ استبدلت بحرسِ الحدودِ المصريين جنوداً بريطانيين شرعوا في مُراقبةِ الحدودِ مراقبةً صارِمَةً والغرضُ الثاني أنّ العثمانيين مضَوا في سحبِ بقايا القواتِ التي ما زالَتْ تشاركُ في المقاومةِ إلى جانبِ المجاهدين، وعلى رأسِها القائدُ عزيز علي المصري.

ولم يجدْ عزيز المصري بُدّاً من الامتثالِ هذه المرةَ لأوامرِ الاستانةِ فقرر الانسحابَ مع قواتِهِ من الأراضي الليبيةِ.

وهنا طلبَ المجاهدون من القائدِ المصري أنْ يتركَ لهم ما في حوزتِهِ مِنْ سلاحٍ وعتادٍ لحاجتِهِمُ الماسَّةِ إلى ذلك. ولكنّ عزيزَ المصريَّ رفضَ هذا الاقتراحَ بشدةٍ على الرغم من السعيِ الحثيثِ لإقناعِهِ بالحُسْنى. وعندئذٍ حدثَتِ المجابهةُ بينَ الأشقاء، وكانَتْ حصيلتُها عشرات القتلى من الجانبين، واشتدَ السخطُ على عزيز المصري لموقفِهِ الجديدِ المناوىء من الثوارِ.

على أنّ الزعيمَ المهدي، وقد هالَهُ الأمرُ وخشي من مغبَّتِهِ، بادَرَ إلى ايفادِ عمر المختارِ لتداركِ الأمرِ، فجدَّ في السير ليلَ نهارَ، واستطاعَ حقنَ الدماء وتهدئةَ الخواطرِ، بعد أنْ أفلحَ في إقناعِ المجاهدين الأعرابِ بأن يتركوا الثأر و يتحلوا بالحِلْمِ.

ومنذُ ذلك اليوم و بعد أنْ غادرَ عزيزُ المصري

أرضَ المعركةِ انتهى دورُ العثمانيين في قتالِ الإيطاليين. وكانَ على السنوسيين وأتباعِهم أنْ يتحملوا عبء الجهادِ بمفردِهم والاعتماد بعدَ اليوم على الله ِوعلى أنفسِهِم.

وقد تَمَيَّزتْ هذه المرحلةُ الصعبةُ من مراحلِ الجِهادِ ضِدَّ الاحتلالِ بإسنادِ قيادةِ المجاهدين إلى السيدِ عمرَ المختارِ شيخ (زاو ية القصور) المعروف. وكان، بما لديه من الخِصالِ الحميدةِ ومقوماتِ الزعامةِ، مؤهلاً لهذه المهمة الجليلة.

وأبدى القائدُ الجديدُ حَصافةً في هذه الظروفِ الدقيقةِ، ولا سيما ما كانَ فيه هو وأصحابُهُ من قلَّةٍ في السِّلاحِ وضآلةٍ في المؤنِ. فكانت خطتُهُ المبدئيةُ التزامَ جانبِ الدفاعِ، مع التربُصِ بالعدوِّ. حتى إذا ما خرجَ الطليانُ من مراكزِهم محاولينَ التوغلَ في

بقاعٍ جديدة انقضَّ عليهمُ المجاهدون، وأعملوا فيهم تقتيلاً، وأوقعوا فيهم شرَ هزيمةٍ.

وبدا جلياً أنّ هذا الأسلوبَ في القتالِ أعطى ثمارَهُ بالنسبةِ إلى المقاومةِ الوطنيةِ. فهو من جهةٍ وفَّرَ بعضَ الراحةِ للمجاهدين، وأعطاهُمُ الفرصةَ لتجميعِ صفوفِهم وتعبئةِ قواهم. وهو من جهةٍ أخرى استطاعَ أنْ يُقلِّلَ الخسائرَ في الأرواحِ إلى أدنى حدٍّ نتيجةَ تجنيبِ المجاهدينَ الاشتباكَ المباشرَ مع العدوِّ الذي كان يفوقُهم في الرِّجالِ والسِّلاحِ والعتادِ.

وبفضلِ هذه الإغاراتِ السريعةِ الخاطِفَةِ غنمَ المجاهدون الليبيون كمياتٍ وافرةً من الأسلحةِ والذخائر من أيدي الجنودِ الإيطاليين أنفسِهم، وما كانوا يفرون عنهُ من قوافل ومن مؤنٍ في أحيانٍ كثيرةٍ.

إنَّها حربُ العصاباتِ التي امتدتْ في كثيرٍ من أنحاء البلادِ واتخذَتْ معاقِلَها الأولى في شعابِ الجبلِ الأخضر.

لقد كان لهذا النَّمطِ من أنماطِ الحربِ المعتمدةِ على الإغارةِ والمفاجأةِ أسوأ الأثر في نفوسِ الجنودِ المعتدين الذين دخلَ الخوفُ نفوسَهم واستبدَّ بهِمُ الذعرُ. إنَّهم يكادون يقاتلون عدوّاً غيرَ منظور يعتمدُ على أساليبِ الكرِّ والفرِّ، وما إنْ يضربُ حتى يهربُ. كان الضبّاطُ الإيطاليون يجهدون في الاشتباكِ مع المجاهدين اشتباكاً حقيقياً آملين من وراء ذلك أنْ يُوقعوا بهم هزيمةً كبيرةً ويحققوا عليهم نَصْراً حاسِماً. غير أنّ عمرَ المختارَ كان حريصاً على أنْ يَفوِّتَ عليهم هذه الفرصةَ.

ومضَتْ شهورٌ أخرى على هذا الغرارِ، حربٌ

طويلةٌ مضنيةٌ لا تنجلي عن غالبٍ ولا مغلوبٍ، حتى حدثَ أَمْرٌ خطيرٌ اهتزَّتْ له أسلاكُ البرقِ في أرجاءِ العالمِ. إنَّهُ الحربُ الكونيةُ التي اشتعلَتْ نيرانُها عام ١٩١٤، وكانَ على إيطاليا أن تكونَ في غمارِها.

ورجعَ السنوسيون ومعهم عمرُ المختارُ وأصحابُهُ إلى نفوسِهم يحاولون أن يقوّموا من جديدٍ ذلك الحدثَ العالميَ وما قد يجرُّهُ من آثارٍ على بلادِهم.

لقد انفتحَتْ في نفوسِهم كوى التفاؤلِ، وراحوا يأملونَ أن تتلقى إيطاليا ضرباتٍ قاصمة من أعدائها خلالَ هذه الحربِ الطاحنةِ. وهكذا تضعفُ شوكةُ العدوِّ وتغدو مهمةُ المجاهدينَ أقلَّ عُسْراً في مطاردةِ المحتلينَ.

السنواتُ الحرجةُ

كانَتْ سنواتُ الحربِ العالميةِ الأولى التي نشبَتْ سنةِ ١٩١٤ قاسيةً على الشعبِ الليبيِّ، كما كانت قاسيةً بالإجمالِ على شعوبِ الأمةِ العربيةِ قاطبةً.

فقد تورّطتِ الزعامةُ السنوسيةُ في حربٍ جديدةٍ مريرةٍ ضدَّ الإنكليزِ المرابطينَ في مصرَ مُحافظةً على الموقعِ الحيوي لممرِ قناةِ السويس. وكانَ ذلك بتغريرٍ مِنَ العثمانيين الذين كانوا يطمحونَ مع الألمان إلى قطعِ طريقِ الهندِ في مصرَ على بريطانيا.

غيرَأنّ هذه الحربَ لم تعدْ بالخيرِ على حركةِ المقاومةِ الوطنيةِ في ليبيا، بل على العكسِ من ذلك

حملَتْ إليها الشقاء وآلتْ بها إلى الإخفاقِ، فعادَ المقاتلونَ من المناطقِ المصريةِ الغربيةِ بخُفَّي حُنينٍ.

وما من شكٍ في أن انصرافَ المقاومةِ عن العدوِّ الإيطاليِّ المباشِرِ والجاثمِ فوق البلادِ، إلى مُحاربةِ الإنكليزِ البعيدين، كان قراراً سياسياً غير حكيمٍ.

ومما زادَ الأمرَ سوءاً خلالَ سني الحربِ الأولى احتباسُ المطرِ عن البلادِ واجتياحُ أرجال الجرادِ لأراضيها وانتشارُ وباء الطاعونِ بين سكانِها. وإنَّ واحدة من هذه النكبات وحدها تكادُ تكونُ قاصِمَةً للظهرِ فكيف بها وقد اصطلحَتْ جميعاً على تلكِ البلادِ.

لقد اشتدَّ البلاءُ وتفشى الوباء، وعمَّتِ المجاعةُ، فهلكَ الآلافُ من الناسِ وسقطوا على قارعةِ الطريقِ

من وطأةِ المرضِ والجوع. حتى إنَّ بعضَ الأحياء اضطروا أحياناً إلى أنْ يقتاتوا بأكلِ لحوم هؤلاء الموتى. كما أنّه كان مِنْ بينِ المقاتلينَ مَنْ اضطرَ إلى بيعِ بندقيتِهِ لقاء شيءٍ من الخبزِ.

وكان على زعامةِ المجاهدينَ أن تقبلَ هذه المرحلةَ العصيبةَ بحلٍّ وسطٍ إلى أنْ تنجليَ غيومُ الحربِ العالميةِ الأولى. وبذلك يُتاحُ لرجالِها أنْ يستردّوا أنفاسَهُم. وهكذا عُقِدَتِ اتفاقاتُ هدنةٍ بينَ الوطنيينَ من جهةٍ وبينَ كلٍّ من الإنكليزِ والإيطاليينَ من جهةٍ أخرى، وانفتحَتْ بذلك طرقُ التجارةِ بينَ برقةَ ومصرَ وتنفَّسَ الناسُ الصعداء.

وكان من نتائج هذه الهدنةِ أنّ الجوَ أصبح مواتياً لإيجادِ تضامنٍ حقيقيٍّ وفعالٍ بينَ شطري ليبيا المنقسمينَ والمتنافسينَ: برقة وطرابلس. وتمَّتْ مبايعةُ

السيدِ محمدِ أدريس السنوسي أميراً على القطرين، وأصبحَتْ البلادُ تحتَ زعامتِهِ عام ١٩٢٢ ليبيا موحدةً.

ولكنْ، هل يُقِرُّ الاستعمارُ هذه الخطوة السياسيَّة الكبيرة التي رأبتِ الصدَع بين الأشقاء؟ وهل يروقُ زبانيةَ الاحتلالِ أنْ يروا الوطنيين أمامَهم صفاً واحداً كالبنيانِ المرصوصِ يَشدُّ بعضُهم بعضاً، أليسَ محورُ سياستِهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ مُعْتمِداً على مبدأ «فرقْ تسدْ» ...؟..

وإذا كان الأمرُ بهذه الأهمية بالنسبةِ إلى حكامِ روما، فلا بُدَّ من التحركِ، والغايةُ في عرفِ هؤلاء تبررُ الواسطةَ. لقد حاولوا ضربَ هذه الزعامةِ الجديدةِ بأخسِّ الطرقِ ومن بينها دسُّ السُّمِ للأميرِ داخلَ العقاقيرِ التي كان يتناولُها، ولكنْ خابَ سَعيُهم.

أمّا الحدثُ الخطيرُ والجديدُ هذه المرة فقد تمَ في روما نفسِها حينَ تمكنَ الحزبُ الفاشستي المتطرِّفُ من الاستيلاء على الحكمِ في سنةِ ١٩٢٢ نفسِها بعدَ أنْ نجحَ زعيمُهُ «موسوليني» في تولي زمامِ الحكمِ بقبضةٍ من حديدٍ. وكانَتْ أولى نتائج هذه المرحلةِ إرغام الأمير السنوسي على مُغادرةِ البلادِ. فلجأ إلى مصرَ واتخذَها مقاماً يرقبُ فيه من كثبٍ تطورَ الأحداثِ في بلادِهِ، و يعملُ على توجيهِ ثورتِها من وراء ستارٍ.

ومنذ اليومِ أصبحتِ القيادةُ الحقيقيةُ للوطنيين في ليبيا في يدِ عمرَ المختارِ، ووجدَ فيه الجميعُ خيرَ ملاذٍ عن حياضِ الوطنِ. ولقد كانَ عمرُ المختارُ ــ بما انطوى عليهِ من مؤهلاتِ الزعامةِ وسماتِ البطولةِ ــ أهلاً لهذه المنزلةِ الساميةِ.

* * *

أمّا الحاكمُ الإيطاليُّ فقد مضى في سياستِهِ الجائرةِ إلى أبعدِ مدى ولا سيما بعدَ أنْ أفلحَ في اتخاذ الخطوةِ الأولى التي تحققَتْ بإبعادِ محمد ادريس السنوسي عن البلادِ. لقد أعلنَ عام ١٩٢٣ «أنّ كلَّ الاتفاقات التي أبرمَتْها إيطاليا معَ السنوسية قد أصبحَتْ مُلغاةً ولا أثرَ لها، وأنّ السنوسيةَ قد أصبحت مجردَ طريقةٍ دينيةٍ كغيرِها من الطرقِ الإسلاميةِ، وأنّ نشاطَها ينحصرُ في حدود الدينِ فحسب».

وهكذا نقض المستعمرونَ الاتفاقاتِ السابقَةَ التي عقدوها مع زعامةِ الوطنيين منتهزين فرصة ازاحة السنوسي من طريقِهم. بل إنهم راحوا يعتمدون أساليب متعسفةً في حلِّ مُعسكراتِ الوطنيين في برقةَ، واستولوا على (أجدابية) ذاتِها مقرِ الإمارةِ السنوسية.

وبدا جلياً أنّ قادةَ إيطاليا الجددَ ينتهجون سياسةً أشدَّ عنفاً، قوامُها القمعُ والبطشُ سعياً إلى بسطِ سيطرتِهمُ الكاملةِ على البلادِ، وأنّهم ماضون لتحقيقِ هذا الهدف عن طريقِ تصفيةِ المقاومةِ ووضعِ حدٍ نهائي للثورةِ.

الحربُ القذرةُ

ما زال الحقُ، ومنذُ الأزلِ، في صراعٍ رهيبٍ مع القوةِ. ولكم عانَتِ الإنسانيةُ من جراء هذا الصراعِ أهوالاً. وكأنَّ قانونَ الغابِ الذي يتحكمُ في عالمِ الحيوانِ هو القانون المفضل إلى الآن لدى المستعمرين الذين يدَّعون الرقي و يزعمون لأنفسهم حقَّ تمدينِ الشعوب.

وكان شعبُ ليبيا الآمِنُ واحداً من شعوبِ الأمةِ العربيةِ التي وقعَتْ فريسةً لذلك الجشعِ الاستعماري. لقد اعتنق الطليانُ مبدأ القوةِ ولم

يرعوا لحقوقِ الإنسانِ وآمنوا أنَّ الحقَ في فُوَّهةِ المِدْفَعِ.

أمّا الوطنيون الأبرياء في ليبيا فقد كانوا بين أمرينِ، أحلاهما مُرٌّ، فإمّا أن يستسلموا للعدوانِ و يقبلوا بالعارِ و يسلموا رقابَهم للجلادينَ، وهذا ليس منْ كرامةِ الشعوب ولا مِنْ العربِ في شيء، وإمّا أنْ يتصدوا للشَّرِّ و يقاوموا الاحتلالَ و يفعلوا ما يمليه عليهِمُ الشرفُ.

ولقد اختارَ الوطنيون في ليبيا، كما اختارَ اشقاؤهم في سائر بلادِ العربِ الطريقَ الوعرَ، طريقَ التضحياتِ. وهكذا كان على المجاهدين أنْ يحملوا السلاحَ. فالعينُ بالعينِ، والسِّنُ بالسِّنِ، والبادىءُ أظلمُ. هذا ما تعلموه في زواياهم وما اعتنقوه في عقيدتِهم.

إن الدّفاعَ عن النفسِ حقٌ طبيعيٌ مقدّسٌ لا تنازعُ فيه الأمم النزّاعة إلى التحررِ. غير أنّ العسكريةَ الإيطاليةَ الحاكمةَ انكرَتْ على عادةِ المستعمرين حقَ هذا الشعبِ العربي في أنْ يتمرّدَ وأنْ يثورَ ضِدَّ الذين يصرونَ على اغتصابِ أرضِهِ واغتيالِ حريتِهِ.

وكانت أولى بوادرِ العنفِ والإرهابِ بعدَ نزولِ البحريةِ الإيطاليةِ في سواحلِ ليبيا أنّها عثَرتْ في الأيامِ التالية على جنديٍّ إيطاليٍّ قتيلٍ في بساتين ناحية «المنشية» وكان هذا الحادثُ الفرديُ المحدودُ مثارَ سخطِ المحتلين فطاش صوابُهم، وراحوا يصبُّون نقمَتَهم على الأهلينَ الأبرياء متّهِمين إيّاهم باغتيالِ جنودِهم حتى إنّهم لم يكلّفوا أنفسَهُم مشقةَ التحقيقِ في الأمرِ ومحاكمةِ الفاعلين..

وكان أنْ ركبَ الجنرالُ (كانيفا) رأسَهُ وأمرَ باجتياحِ ناحيةِ المنشيةِ واستباحتِها ثلاثةَ أيامٍ متواليات، فقتلوا من الأهلينَ أعداداً كبيرةً تتراوحُ تقديراتُها بينَ أربعةِ آلاف نسمةٍ، وهتكوا أعراضَ النساء، وألقَوا في غياهبِ السجونِ آلافاً من الأبرياء ونفَوا قُرابةَ تسعمائةٍ من الوطنيين الشبان إلى إيطالية وصقلية..

ثم عمدَتِ السلطةُ الحاكمةُ بعد حينٍ قصيرٍ إلى إشعالِ الحرائقِ في واحدٍ من الأحياء السكنيةِ الواقعةِ خلفَ (بنك دي روما) في طرابلسَ بعد أنْ ذبحوا أكثرَ سُكّانِ هذا الحيِّ الذي التهَمَتْهُ النيرانُ. ولم يسلمْ من فتكهِمُ النساء والأطفالُ والشيوخُ والعجزةُ.

وأعقبَ الطغاةُ ذلك بأن أعدموا رمياً بالرصاصِ خمسين نسمة معظمُهم من النساء والأطفالِ في

إحدى الثكناتِ العسكريةِ بطرابلسَ.

هذه الأهوالُ وما تلاها لم ترهبِ الأحرارَ كما كان المحتلون يُقدّرون، وإنّما ألّبتْ عليهم الكثيرين من الأهلينِ الذين لم يحملوا السلاحَ بعدُ حينَ شاهدوا بأمِّ أعينِهم تلكَ الفظائعَ، فثاروا لكرامتِهم واضطرمَتْ في نفوسِهم منازعُ الثأرِ فهبوا للانتقامِ وغسل العارِ.

وهكذا تعمّقَتِ الكراهيةُ للطليانِ، وشملَ الحقدُ عليهم كلَّ نَفْسٍ. فإذا الشَّرُّ يستلزِمُ الشَّرَّ والعنفُ يقتضي العنفَ.

وإزاء هذا السُّخطِ العارم ضِدَّ المحتلين عمد حُكّامُ روما إلى اعتبار الوطنيين الذين ينحازون إلى صفوف المقاومةِ مُجرَّدَ عصاةٍ خارجين على القانون

وضد الحكومة الشرعية القائمة، وعقابُهم تبعاً لذلك هو الموتُ شنقاً أو رمياً بالرصاص.

* * *

ثم كانَ عهدُ الفاشيين بزعامةِ موسوليني ابتداء من عام ١٩٢٢ وصمة عارٍ في جبين الإنسانيةِ، إذ تضاءلَتْ إلى جوارِهِ جميعُ الفظائعِ السابقةِ.

كان الفاشيون في عَجَلةٍ من أمرهم، وهم أسرى لوهمٍ كبيرٍ أو حُلُمٍ عظيمٍ كان يُدغدِغُ مشاعرَهم، إنّهم يتلهّفون على بعثِ الأمبراطوريةِ الرومانيةِ الغابرةِ، وما كانت تتمتعُ به روما من عظمةٍ وسلطانٍ.

وقد طمحَ موسوليني إلى أنْ يحققَ على المقاومةِ الوطنيةِ في ليبيا نصراً كبيراً يستطيعُ بعدهُ أنْ يحسمَ

هذه القضيةَ الشائكَةَ التي أقضَّتْ مضاجعَ إيطالية أكثر من عشرِ سنواتٍ دونَ أنْ تبدوَ في الأفقِ بوارقُ السَّلامِ.

لقد استأنفَ الفاشيون سياسةَ القمعِ والتنكيلِ، وراحوا يصعِّدُون العنفَ والإرهابَ تُجاهَ الشعبِ الليبيِّ دونَ هوادةٍ.

لقد عمدَ المحتلون إلى اتباع أسلوب الأرضِ المحروقةِ قاصدين إلى إبادةِ السكانِ وإفنائِهم لِتتحوَّلَ بلاذُهم من بعدُ إلى رقعةٍ لاتينيةٍ تكونُ امتداداً طبيعياً لإيطاليا ومجالاً حيوياً لِحُكَّامِها.

وهكذا تفتقَتْ عقولُهم عن إجراءاتٍ تعسفيةٍ جديدة، فصادروا الأموالَ واستولوا على الأراضي وأمعَنوا في أساليبِ القمعِ والإعتقالِ وإحراقِ الدورِ وسبي النساء.

ثم منعوا التجمعات وأنكروا على الناسِ حقَّ التظلمِ وحالوا بينَهُم و بينَ قراءةِ الصحفِ والمجلاتِ ومطالعةِ الكتبِ والمؤلفاتِ، حتى حالوا بين الناسِ و بينَ التراسُلِ مع ذويهم، لأنها لا تحملُ العناوينَ مكتوبةً باللغةِ الإيطالية، فإذا الأهلونَ من جراء كلِّ ذلك في بلادِهم داخلَ سجنٍ كبيرٍ.

وإمعاناً في سياسةِ الحقدِ والتعسفِ التفتَتِ السُّلطةُ الباغيةُ نحو المقدساتِ الإسلامِيَّةِ التي عاشَ عليها عربُ ليبيا منذُ عهودٍ مديدةٍ وراحَتْ تكيدُ لها أي كيدٍ. فقد منعت أداء فريضةِ الحجِ متذرِّعةً بانتشارِ الأوبئةِ في الحجاز.

عمدَ قائدُ ميناء طبرقَ إلى القاء المصحفِ الشريفِ أرضاً وداسَهُ بقدمِهِ على مشهدٍ من بعضِ

الليبيين وهو يقولُ بغيظٍ: «إنكم معشرَ المسلمين لن تصيروا بشراً ما دام هذا الكتابُ بين أيديكم».

ونشطَ المبشرون في ظلِّ الاحتلالِ وأنفقُوا أموالاً طائلةً في تشييدِ الكنائسِ في طولِ البلادِ وعرضِها دونَ أن يكونَ هنالك من السُّكَّانِ المسيحيينَ مَنْ يحتاجُ إليها. كذلك عمدوا إلى مختلفِ أساليب الإغواء أو القسرِ بقصدِ تنصير النساء والشبانِ وبثِّ روحِ (الكثلكةِ) في المدارسِ بين الأطفالِ. حتى إنّهم ألزموا خطباء المساجد بالدعاء من على منابرِهم لحاكمِ إيطاليا، فكان أنْ امتنعَ الناسُ عن صلاةِ الجمعةِ، وهذا ما أثارَ ثائرةَ العالمِ الإسلاميِّ كلِّهِ آنئذٍ.

ولجأتِ السلطةُ الحاكمةُ إلى أسلوبِ السخرةِ وراحَتْ تصادرُ أفواجَ القرويين وسكانَ الريفِ

لبناء القلاعِ وتعبيدِ الطرقِ وما إلى ذلك من الأشغالِ الشاقةِ.

وكان حُكّامُ إيطاليا ولا سيما في العهدِ الفاشستي يبعثون بزبانيتِهم العُتاةِ إمعاناً في سياسةِ التنكيلِ التي انتهجوها وكان في مُقدّمتِهم القائدُ بادوليو ثم الجنرال غرازياني. ومن أسوأ ما فعلوه أنّهم ألقوا بجماعةٍ من الوطنيين من الطائرةِ في مِنْطَقَةِ غرودس العبيد بالجبلِ الأخضرِ وفي سواها. حتى باتَتْ هذه الطريقةُ الجهنميةُ مألوفةً لدى السُّلطةِ المحتلةِ. فقد اخترعَ الجنرال غرازياني بدعةَ المحاكمِ الطائرةِ. وهي محاكماتٌ سريعةٌ يتنقّلُ أعضاؤها بالطائرةِ على حسبِ موقعِ الأحداثِ وتعقد جلساتُها آنياً وفي الهواء الطلقِ، ولم تكنْ تتيحُ للمتهمين فرصَ الدفاعِ عن أنفسِهم، وكثيراً ما كانتِ الأحكامُ بعدَها تنفذُ في

الوطنيين باسقاطِهم من أعلى الجوِ ليلقوا تلك الميتةَ الرهيبةَ.

ومن أقبحَ ما فعلوه أيضاً أنّهم ربطوا الشيخَ مفتاح العبيدي وابنَ عمِهِ صالح العبيدي بين سيارتين ساقوهما في اتجاهينِ فتقطَعَتْ أوصالُهما على مرأى من وجوهِ قبيلةِ (العبيد) المعتقلين في معسكرِ (تاكنس) الفاشستي الرهيبِ.

وكانَتْ معسكراتُ الاعتقالِ الجماعيِّ مظهراً بشِعاً لتهجيرِ السكانِ والتنكيلِ بهم. حتى إنَّ (غرازياني) حشدَ في أحدِها نحو ٨٠ ألف نسمةٍ من أهالي برقة وأحاطَهُم بسياجٍ من الأسلاكِ الشائكةِ بعد أنْ أرغمَهم على تركِ دورِهم وحقولِهم.

لقد بلغَتْ نسبةُ الوفيات في تلك الظروفِ السيئةِ بين الأطفالِ الليبيين نحو تسعة أعشار الأحياء منهم

وتفاقمَتْ أمراضُ العيونِ وأورثَتْ الكثيرين العمى وفقد البصرِ وأخذَتْ جموعُ الناسِ تهلكُ من جراءِ ضآلةِ الغذاءِ وتفشي الأمراض.

* * *

ولكن هل ثمَّةَ بديلٌ عن الجهادِ. إنَّهُ القَدَرُ المحتومُ الذي لا مفرَ منه أمامَ الشعوبِ الظامِئةِ إلى الحريةِ الطامِحَةِ إلى الكرامةِ. وكأنَّ الله تعالى يعيدُ مخاطبةَ عبادِهِ الصالحينَ بقوله:

«كُتِبَ عليكمُ القتال وهو كُرْهٌ لكم»،

«والعاقبةُ للمتقين».

معاركُ الجبلِ الأخضرِ

لئنْ خَفَّتْ حدَّةُ القتالِ إبانَ سنواتِ الحربِ العالميةِ وخلالَ بعضِ الأوقاتِ التي تَلَتْها إنَّها لم تتوقَفْ. وكانَ على عمرَ المختارِ بعد أنْ تسلَّمَ زِمامَ المجاهدين وقيادةَ المقاومةِ أنْ يظلَّ غلى صِلَةٍ مُسْتمرةٍ بالزعيمِ السنوسي المَنفي في مصرَ.

وهكذا تبادلَ الرجلان الرأيَ فيما ينبغي أنْ تكونَ عليهِ خطَّةُ العملِ في المرحلةِ المقبلةِ. ولمَّا همَّ القائدُ المجاهدُ بالعودةِ منْ أرضِ الكنانةِ مُلبياً نداءَ الأرضِ وصوتَ الضميرِ ودعوةَ الواجبِ استوقَفَهُ

صديقُهُ عبدُ الرحمنِ عزام وكانَ مِنْ السباقين من رجالِ العروبةِ في مصرَ إلى التطوعِ للجهادِ في ليبيا، وقد أصبحَ بعدَ حينٍ أولَ أمينٍ عامٍّ لجامعةِ الدولِ العربيةِ لدى تأسيسِها.. لقد لاحظَ عزامُ في ملامحِ عمَرَ المختارِ آثار السنين ومعالمَ الاكتهالِ، فحدثَهُ في أمرِ الإخلادِ إلى الراحةِ بعدَ طولِ عناءٍ وجهادٍ، والشيخوخةُ تزحفُ نحوه بخطا حثيثةٍ، فكانَ أنْ أجابَهُ أسدُ الصحراء وهو يودِّعُ صاحبَهُ في حلوانَ بمصرَ:

ـــ أيُّ خيرٍ في أنْ أعيشَ مُهاجراً ذليلاً؟ عليَّ أنْ أعودَ إلى بلادي لأموتَ على ثراها، فأؤدِّي آخرَ حقٍّ عليَّ للهِ وللوطنِ».

* * *

وهكذا كانَ على عمرَ المختارِ وصحبهِ أنْ يجدّوا في السَّيرِ، قاصدينَ إلى معاقِلهم في شعابِ الجبلِ الأشمِ، الجبلِ الأخضرِ، وفي نفوسِهم إيمانٌ راسخٌ بأنَّ الحقَّ لا يموتُ، وأنّهم لا بُدَّ خائضونَ معاركَ ضد قوى الشرِ مهما عظُمَتِ التضحياتُ.

على أنَّهُ ما مِنْ أحدٍ كان يتوقعُ أنْ تبدأ المعركةُ الأولى، والأسدُ في طريقِهِ إلى عرينهِ، قبلَ أوانِ المعاركِ. فرحلةُ العودةِ من سلوم مصر إلى برقة ليبيا لم تكنْ تخلو من المخاطِر، لأنَّ جواسيسَ العدوِّ كانوا يترصدون ـــما وسعَهم الجهدُـــ كلَّ حركاتِ المختارِ وسكناتِهِ. وسرعانَ ما طيَّرُوا الخبرَ إلى رؤسائهم بأنَّ غريمَهم قد اجتازَ الحدودَ الشرقيةَ وأنَّ وقوعَهُ في الشَرَكِ باتَ يسيرَ المنالِ.

وكانَ أنْ أنفذَ الطليانُ في أقصرِ وقتٍ ثلاث

سيارات مصفحةٍ ومدججةٍ بالجنودِ كمنَتْ لركبِ المجاهدينَ بقصدِ أسرِهِم واقتيادِهم إلى الحاكمِ العسكريِّ الذي كانَ من دونِ شكٍ يفركُ كفيهِ فرحاً وقلبُهُ يرقصُ بِشْراً، وهو يمني نفسَهُ بأن يُؤتَى إلى مكتبِهِ الفخمِ بعدوهِ اللدودِ عمرَ المختارِ صاغراً يناشدُهُ الرحمةَ و يعاهدُهُ على التوبةِ.

وما إنْ ظهرَ عمرُ المختارُ مع جماعتِهِ من جانبِ الوادي حتى أمطرَتْهم مصفحاتُ العدوِّ بغتةً بوابلٍ من رصاصِ مدافعِهِمُ الرشاشةِ. وكان على المجاهدين أنْ يبادروا إلى التخَلُّصِ من هذا المأزق الصعبِ، ولمْ يكنْ ذلكَ باستطاعتِهم إلاّ إذا تحلّوا بأمرين: صمودٌ وذكاءٌ. وما هي إلاّ مناوشةٌ قصيرة ثبتَ المجاهدون ثباتَ الصخورِ التي اتكؤوا عليها ببنادقِهم، وتحينُوا الفرصةَ المؤاتيةَ وركزوا رصاصاتِهم على عجلاتِ

المصفحاتِ المعادية فأصابوها بالشللِ. وانقلبَتِ الأمورُ عاليَها سافِلَها، وأصبحَ الطالبُ مطلوباً، إذ انقضَّ عمرُ المختارُ ورجالهُ الأشداء برشاقةِ العقبانِ على مَنْ قبعوا داخلَ آلياتِ العدوِّ من الجنودِ وتمكَّنوا من الفتكِ بهم، فخرّ الجميعُ صرعى فوقَ حدائدِ مصفحاتٍ غدَتْ هي قبلهم أيضاً صرعى.

إنّها معركةٌ محدودةٌ بينَ قوتين لم تكونا في واقعِ الأمرِ كبيرتين. ولكنّ صداها كان في حقيقة الأمرِ كبيراً، إذ سرَتْ أخبارُها بين العربِ والطليانِ سريانَ البرقِ. فعلى حين أنّ هذه المعركةَ، التي لم تكُنْ في حُسْبانِ المجاهدين والتي خطَّطَ لها العدوُّ منذُ أمدٍ بعيدٍ، قد زادتِ الوطنيينَ ثقةً بأنفسِهم ورفعَتْ من روحِهِمُ المعنويةِ، فإنّها في مقابلِ ذلك ألقَتْ الرعبَ في قلوبِ الجنودِ الإيطاليينَ، وأعادَتْ كيدَهُم إلى

نحرِهم، حتى إنَّ واحداً منهم لم يجرؤ آنئذٍ على معاودةِ الهجوم واعتراضِ رحلةِ القائدِ المختارِ. وهكذا بلغَ الركبُ الجبلَ الأخضرَ وعادَ الأسدُ إلى عرينِهِ.

* * *

كانَ أولَ ما بادرَ إليهِ عمرُ المختار زعيمُ المجاهدين اختيارُ كبارِ معاونيه وتعبئةُ المقاتلينَ تحتَ لوائِهِ. وتقاطرَ الرجالُ الأشداءُ مِنْ قبائلِ: «العبيداتِ والبراعصة والحاسة والعرفة والدرسة..» الخ. وقررَ قائدُ المجاهدينَ أنْ يولِّيَ على مجموعاتِ المقاتلينَ رجالاً على كلِّ مجموعةٍ واحداً من ذوي البأسِ يكونون في الوقتِ نفسِهِ كبارَ أعوانِهِ ومساعديهِ.

وخلال وقتٍ قصيرٍ التفَّتْ حولَ عمرَ المختارِ في معقلِهِ بالجبلِ الأخضرِ قوةٌ محاربةٌ مؤمنةٌ قوامُها ألفٌ

وخمسمئة مقاتلٍ، كان نحو ثلثهم من الفرسانِ، تحْذُوهم جميعاً إلى الجهادِ عقيدةٌ اسلاميةٌ راسخةٌ وحميةٌ عربيةٌ أصيلةٌ وإجلالٌ كبيرٌ لشخصيةِ قائدِهم وما انطوَتْ عليهِ من خِصالٍ جمّةٍ.

ومضى القائدُ في الاستعدادِ للمعاركِ المرتقبةِ، فعمدَ إلى بعضِ الإجراءاتِ التمهيديةِ التي رآها بثاقبِ نظرِهِ ضروريةً قبلَ أنْ تستعِرَ نيرانُ القتالِ. وكانَ من أهمّ ما فعلَهُ إبعادُه السكانَ من نساءٍ وشيوخٍ وأطفالٍ مع مواشيهم عن مناطقِ المعاركِ ضماناً لأمنِهم وتوفيراً لحريةِ الحركةِ للثوارِ من أبنائِهم.

كذلك عمدَ القائدُ المختارُ إلى تزويدِ رجالِهِ بعددٍ كبيرٍ من القربِ التي تكفلُ لهم ماء الشربِ في الشعابِ النائيةِ، بالإضافةِ إلى ما تستلزمُهُ مهماتُ القتالِ من سلاحٍ وزادٍ وعتادٍ.

وكانت هذه التعبئةُ تعني في حقيقةِ الأمر
الدخولَ في طورٍ جديدٍ من أطوارِ الحربِ المديدةِ
المستمرَّةِ بين الوطنيين وبين المستعمرينَ في ليبيا
العربيةِ، طور اقتَضتْهُ الظروفُ المستحدثةُ التي نجمَتْ
في البلادِ في اثرِ تصعيدِ اجراءاتِ البطشِ والقمعِ من
قبل الحكم ِ الفاشستي الجديد، هذا الحكمُ
الدكتاتوري الغاشمُ الذي استبدَ بالأمورِ في روما
وراحَ يمنّي نفسَهُ بنَصْرٍ خارجي يبيضُ بنتيجتِهِ
صفحتَهُ أمامَ شعبِ إيطاليا ولا سيما خلالَ السنواتِ
التاليةِ التي أعقبَتْ وصولَ موسوليني إلى الحُكْمِ.

وهكذا، ومنذُ عام ١٩٢٤ عادَتِ المعاركُ إلى
شدَّتِها بعدَ مدةٍ من التراخي دامَتْ بضعَ سنينَ،
وغنيٌّ عن القولِ إنَّ العدوَّ لم يكن نائماً طوالَ هذه
المدةِ، بل إنّه كانَ يخطّطُ لِحَسْم ِهذه الحربِ، حربِ

الاستنزافِ التي انقضى على بدايتِها بضعةَ عشرَ عاماً دون أنْ تبدوَ لها نهايةٌ. فقد بدأتِ البحريةُ الإيطاليةُ هجومَها على أراضي ليبيا قبلَ أنْ تستعِرَ نيرانُ الحربِ الكونية الأولى ببضع سنوات. ثم مرَّتْ أعوامُ تلك الحربِ الضروسِ ثقالاً، دونَ أنْ يتغيرَ في واقعِ الأمورِ شيءٌ، وها هي ذي تلك الحربُ العالمية تضعُ أوزارَها، ثم تعقبُها سنواتٌ عجَافٌ أخرى دونَ أنْ يلوحَ في آفاقِ رمالِ ليبيا ما يشيرُ إلى انجلاءِ ذلك الليلِ الطويلِ. بل إنَّ حدَّةَ القِتالِ أخذَتْ تتفاقمُ يوماً بعدَ يومٍ حتى حلول صيفِ ١٩٢٧.

معركةُ الرحيبةِ

حاولَ الجنرالُ غرازياني أنْ ينفذَ إلى قلبِ المقاومةِ الوطنيةِ في ليبيا من طريقٍ آخرَ هذه المرَّةَ، فلجأ إلى استمالةِ رؤوسِ الثائرينَ مِنْ أعوانِ عمر المختارِ آملاً في تفكيكِ عُرا النِّضالِ ونسفِ الثورةِ مِن الداخلِ ولكنْ خابَ سعيُهُ ولم تفلحْ معَ الأحرار أساليبُ التشكيكِ في قائدِهِمُ البطلِ، كما لم تنجح تُجاهَهُم طرقُ الترهيبِ ومحاولاتُ الإغراءِ.

وعندئذٍ راحَتِ القيادةُ العسكريةُ بخنقٍ تبيِّت خطَّةً سريةً لضربِ المجاهدينَ في معقلِهم بالجبل

الأخضرِ بعدَ أنْ تفاقمَ خطرُهُم ولا سيما في إبَّانِ عام ١٩٢٧ . وتراءى لها أنْ تفاجِئَهُم بهجومٍ مباغتٍ يرمي إلى كسرِ شوكَتِهم .

تحرَّكَتِ القوةُ الإيطاليةُ تحتَ جنحِ الظلامِ باتجاهِ أهدافِها، وقوامها ٧٤٤ جندياً على رؤوسِهم ١٢ ضابطاً، وذلكَ بقيادةِ الماجور (باسي)، وكانت مُدعَّمةً بالعرباتِ المدرعةِ. وقد اعترضَتْ مسيرةَ هذه القوةِ جماعاتٌ محدودةٌ من الثوارِ استطاعَتْ إعاقةَ تقدُّمِها ولكنْ لمْ تحلْ دونَ احتلالِها بعضَ المرتفعاتِ.

وفي هذه الأثناءِ حانَ دورُ عمرَ المختارِ، وتحتَ إمرتِهِ القوةُ الرئيسيةُ من الفُرْسانِ، فاشتبكَ مع قوةِ العدوِّ في مُنْخفضِ «الرحيبةِ»، وقامَ حولَهُمْ بحركةِ التفافٍ بارعةٍ أصبحَ معها موقفُ الماجور «باسي»

بالغَ الحرجِ، ولم يجدْ حينئذٍ بُدّاً من إصدارِ أوامرِهِ العاجلةِ بالانسحابِ. ولكنَّ عمليةَ الانسحابِ نفسَها كانَتْ محفوفةً بالمخاطرِ، إذ حدثَتْ خلالَها بلبلةٌ بينَ الجنودِ النظاميينَ، وما لبثَ أكثرُهم أنْ وجدوا أنفسَهم مطوقينَ تتهاوى عليهم ضرباتُ الثوار كالصَّواعِق، وحدثَ التحامٌ شديدٌ في الساعاتِ الأخيرةِ من المعركةِ بالسّلاحِ الأبيضِ ووجهاً لوجهٍ، فَقُتِلَ من الإيطاليين جندٌ كثيرٌ، وحاولَ الباقون الفرارَ فلم يفلحوا لقلةِ درايتِهم بمسالك الجبل الأخضر وشعابِهِ، فكانَتْ بنادقُ المجاهدينَ تتلقاهُمْ فيتساقطونَ مجندلينَ على الصخورِ.

وانجلَتْ معركةَ (الرحيبة) التي وقعَتْ في ٢٨ آذار (مارس) ١٩٢٧ عن مقتلِ ستةِ ضباط، أيْ نصفِ عددِهِمُ الأصليِّ، وأيضاً ٣٤٠ جندياً صُرعوا

أيضاً في المعركةِ وهم يقاربونَ أيضاً نصفَ جنودِ القوةِ المُهاجمةِ.

وهكذا انقلبَتِ المعركةُ وبالاً على المحتلينَ، مِنْ حيثُ أرادوها في البدءِ مُباغِتةً صاعِقةً. وقد اعترفَ والي برقة الجنرال «تورتسي» بالهزيمةِ وعزا مع بعضِ أعوانِهِ هذه النتيجةَ إلى سوءِ تقديرِ القيادةِ لقوةِ الثوارِ، وإلى تسرعِ قائدِ الحملةِ في إصدارِ أوامرِهِ بالانسحابِ مما أفقدَ جيشَهُ القدرةَ على التصدي... وما إلى ذلك من المبرراتِ.

* * *

والحقُّ، لقد لقيَتْ مفارزُ الإيطاليينَ في ربوعِ الجبلِ الأخضرِ بزعامةِ عمَرَ المختارِ ما دوَّخها وشتَّتَ شملَها، ولا سيما بعدَ أنْ وسَّعَ الثوارُ دائرةَ عملياتِهم

قاصدينَ من وراء ذلك شغلَ قواتٍ إيطاليةٍ كبيرةٍ بقصدِ تخفيفِ الضغطِ على إخوانِهم في مناطقِ البرقتين.

وفي هذه الأوقاتِ سطعَ نجمُ عمرَ المختارِ وطارَ صيتُهُ في الآفاقِ باعتبارِهِ قائداً فذّاً يتقنُ أساليبَ الكرِّ والفرِّ ويحسنُ توجيهَ دفّةِ القتالِ بما اتسمَ به من نفاذِ البصيرةِ وقوّةِ الشكيمةِ. وإنَّ مجردَ ذكرِ اسمِهِ كان يلقي الهلعَ في قلوبِ الأعداءِ، حتى تراءى لمخيلَتِهِمُ أنَّه ذو بأسٍ وقوةٍ خارقةٍ وكأنَّهُ واحدٌ ممن تتحدثُ بذكرِهم الأساطيرُ.

وأخذَتْ جموعٌ جديدةٌ من عربِ القبائلِ القاطنةِ في الجبلِ الأخضرِ تنضمُ إلى صفوفِ المقاتلين، على حين بادرَ الأهلون من غيرِ المحاربينَ إلى إمدادِ إخوانِهم بما في وسعهم من مؤنٍ وعتادٍ وسلاحٍ.

ولم تكنِ القواتُ الإيطاليةُ النظاميةُ قادرةً على القيام بنشاطٍ حربيٍّ ملحوظٍ بآلياتِها الثقيلةِ في تلكَ المناطقِ الوعرةِ. إذ أن ما استطاعَتْ جموعُ الأعداءِ احتلالَهُ لم يكنْ يتعدىٰ بعد لأي كبيرٍ سفوحاً دانيةً اتخذَتْها فِرَقُهم نقاطَ تجمعٍ وارتكازٍ دونَ أنْ يتمكَّنوا من التوغُّلِ كثيراً في تلك الشعابِ المحفوفةِ بالأخطارِ والتي لا يكادونَ يعرفون من مسالِكِها شيئاً.

وكان على الطغمةِ العسكريةِ المحتلةِ أنْ تقدحَ زنادَ فكرِها، وتسعى إلى إيجادِ حقلٍ جديدٍ ينجلي العملُ فيه عن نتائجَ أفضلَ على الصعيدين العسكريِّ والسياسيِّ. ولتكن الضربةُ إذن في مكانٍ آخر حيثُ يكون أثرُها أظهرَ.

تصعيد القتال

كانَتْ واحةُ الجغبوبِ واحدةً من أهمِ المناطقِ جنوبي الجبلِ الأخضرِ. وتقعُ رمالُها على طرفي الحدودِ بينَ مصر وليبيا.

وقد نشطَتْ حياةُ السنوسيين قبلَ حينٍ في بلدةِ الجغبوبِ حتى غدَتْ مِنْ أبرزِ مراكزِ دعوتهم.

ورأى العسكريونَ الإيطاليونَ أنَ احتلالَ الجغبوب سوفَ يحقِّقُ لهم ظفراً مبيناً على المجاهدينَ لأن سقوطَها في أيديهم جديرٌ بأنْ يُخلِّفَ أثراً سيئاً في نفوسِ الثوارِ ويهبطَ إلى حدٍّ كبيرٍ بمعنوياتِهم، لما لها

من منزلةٍ ساميةٍ في قلوبهم. يضافُ إلى ذلك أنَّ المِنْطَقَةَ سهليةٌ صحراويةٌ تتيحُ للقوةِ الإيطاليةِ أنْ تسرحَ وتمرحَ خلالَها بآلياتها السريعة، على حين لا قِبَلَ للثوارِ في هذه البيئةِ بالتصدّي للجيش النظاميّ.

وقد أعدّ الإيطاليون للأمر عُدَّتَهُ، فبنوا عدداً من المطاراتِ الحربيةِ القريبةِ ثم جهَّزوا حملةً عسكريةً كبيرةً تتألفُ من ألفين من الجنود وأرتال من العَرَباتِ المصفَّحَةِ ومن ناقلاتِ الجنودِ وعشراتِ المدافعِ الرشاشَةِ، فضلاً عن أعدادٍ كبيرةٍ من السيارات المُحمَّلةِ بالمؤن والذخائرِ وخزّاناتِ الماء.

ومع ذلك كان أخشى ما يخشاه الإيطاليون أنْ يبادرَ عمرُ المختارُ على رأس رجالِهِ إلى الهبوط من جبلِهِمُ الأخضرِ ليذودوا عن بلدتِهِمُ الأثيرةِ. ولذلك

أمدُّوا مناطقَ الجبلِ الأخضر بقوات إضافيةٍ تحولُ دون ذلك الزَّحفِ المُحْتمل.

على أنّ كلَّ هذه الاستعداداتِ الحاشدةِ من قِبَلِ القادةِ الطليان لم يكن لها في حقيقة الأمرِ ما يبررها لأنّ سكانَ الواحةِ في معظمهم كانوا قد نزحوا عنها، و برغم ذلك ظلَّتِ الطائراتُ الحربية تحلِّقُ إلى حين فوقها تحسُّبا لوجودِ الثوارِ فيها. ومع أنّ هذه الطائراتِ لم تستكشف ما يشكِّلُ عقبةً في طريق الحملةِ فإنّ القوةَ الإيطالية لم تبدأ هجومَهَا على المدينة إلاّ بعدَ تريثٍ وحذر.

وهكذا دخل المحتلون بلدةَ الجغبوب في ٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٦ دون أنْ يلقوا في مهمتهم هذه أيَّةَ مقاومةٍ.

والحقُّ أنّ الليبيين اكتأبوا لسقوط الجغبوب مَعْقِلِ السنوسيةِ كما وجد الثوارُ في ذلك مُصِيبةً تفتُّ في عضدِهِم باعتبار المِنْطَقَةِ ممراً هاماً لكمياتٍ من المؤن والذخائر التي تنفذُ إليهم عبرَ الحدودِ من مصر.

* * *

وما من ريبٍ أنّ هذا النَّصْرَ الذي حقَّقَه جيشُ الاحتلالِ الإيطاليِّ قد نعش نفوسَ الأعداءِ وشفى بعضَ ما في نفوسِهم. ولعلَّ أهمَّ ما في الأمر أنَّه ولَّدَ في أذهانِهم القناعةَ بجدوى خططِهِمُ الجديدةِ.

كان لا بُدَّ لحكامِ روما الفاشست أنْ يحزموا أمرَهم ويشنوها حرباً حقيقيةً شامِلَةً تضعُ حدّاً لنشاط الثوارِ وتخضدُ شوكتَهم إلى الأبدِ. فأرسلوا فرقاً نظاميةً جديدة إلى مواقع القتالِ وحشدوا للحملة الكبيرةِ قواتٍ كبيرةً تدعمُها أرتالُ السياراتِ

المصفحةِ، وتشد أزرَها أسرابُ الطائراتِ الحربية، وتساندُها وحداتُ الأسطولِ المدرعةُ.

وقد ندبتْ حكومةُ الدوتشي موسوليني واحداً من أبرز قادتِها وأشدِّهم بأساً لقيادةِ الأعمالِ العسكريةِ المرتقبةِ في لبيبا، إنّه الجنرالُ غرازياني القائدُ العام لقوات الاحتلالِ الإيطالية.

ولكنْ عندما حدث الالتحامُ الأولُ مع الثوارِ وقعتْ خسائرُ فادحةٌ في صفوف الإيطاليين ومنوا بهزيمةٍ منكرةٍ. غير أنّ الإيطاليين وقد وافتْهُمُ الإمداداتُ استطاعوا بنتيجةِ تفوقِهِمُ العسكريِّ الساحقِ أنْ يضيِّقُوا نطاقَ الحِصَارِ حول جماعاتٍ من المجاهدين وأنْ يتغلَّبوا عليهم.

وخسر الثوارُ الليبيون هذه المعركةَ، فالأيامُ دولٌ، يومٌ لك ويومٌ عليك.

البطولات المثلى

ازدهى النصرُ الأخيرُ في واحدةٍ من المعاركِ المتواصِلَةِ مشاعرَ العسكريين الإيطاليين، فالتفَتَ كبارُ قادتِهِم وأركانِ حربهم إلى مناطقَ أخرى من ربوعِ ليبيا الرحيبةِ يودُّون الاستيلاء عليها. وجعلوا في خطَّتِهم التوغلَ في جنوب البلاد واحتلالَ مِنْطَقَةِ الفزان. وكان ذلك كلُّهُ مظهراً عملياً لسياسة الاحتلالِ الجديدة في تصعيدِ القِتالِ ولو أدّى ذلك إلى وضعِ ثقلِ القواتِ المسلحة الإيطالية في سبيل تحقيقِ أهدافِها الاستعمارية.

تحرَّكَتِ الحملةُ الإيطالية الكبيرةُ بقيادة الجنرالِ

غرازياني في أول عام ١٩٢٨. وقد انتهز هذا القائدُ فُرْصَةَ حلولِ الشتاء واعتدالِ الجوِّ حِرْصاً منه على أنْ يجنِّبَ جيشَهُ وطأةَ الحرِّ في الصحراء.

أمّا الثوارُ في الجبلِ الأخضرِ، وقد علموا بزحفِ العدوِّ، فقد وجدوا أنّ الحركةَ بَرَكَةٌ، فلم يشاؤوا انتظار الأعداءِ حتى يبلغوا مقاصِدَهم، وهكذا انبروا خِفافاً إلى قوةٍ كبيرةٍ كانت تجدُّ في السيرِ تُجاه فزان. وكان بحقٍّ التحاماً شديداً وطويلاً، فقد استمرَّتْ هذه المعركةُ خمسةَ أيامٍ كاملة انجلتْ في نهاية الأمرِ عن ظفرٍ مبينٍ للعرب على المستعمرين، إذ انهزم الجنودُ الإيطاليون شرَّ هزيمةٍ وتشتت شملُهم، وتقهقروا بأعدادٍ كبيرةٍ محاولين النجاةَ بأنفسِهم بعد أنْ خلّفوا في أرضِ المعركةِ مؤناً وفيرةً وذخائرَ كثيرةً.

* * *

ثم ما لبثتْ قوَّة ٌإيطاليةٌ أخرى أنْ تحرَّكَتْ أيضاً قاصِدَةً إلى فزان لتلتقي بسائر القواتِ التي كانتْ تشكِّلُ مجموعَ الحملةِ الموجهة. وقد لامست انباءُ تحركِها مسامعَ المجاهدين بعدَ ثلاثةِ أيامٍ من سيرها. وهنا تدارس قادةُ الثوار الأمرَ ولم يشاؤوا كعادتهم مواجهةَ العدوِّ بصورة سافرةٍ. فانسحبوا إلى الداخل واتخذوا مواقعَهم في مكانٍ يقعُ بين جبلين من سلسلة جبالٍ تُعْرَفُ بالجبالِ السود، وتربَّصوا للقوة الإيطالية المُدجَّجَةِ بالسلاح وهي تندفِعُ عبر ذلك الوادي السحيقِ.

وفي اللحظةِ المواتية فتح الثوارُ نيرانَ بنادقِهم من بين الصخورِ في أعالي السفوحِ فانهمَرَتِ الحممُ على رؤوس الجنودِ كالمطرِ المنهمرِ، فأخذتْهُمُ المفاجأةُ، ودبَّ فيهم الارتباكُ، ولم يدروا في أيِّ جهةٍ يقاتلون.

ولم تمضِ ساعاتٌ قليلةٌ حتى اضطرت قوافلُ العدوِّ وآلياتُهُ إلى التقهقر من حيثُ أتَتْ. وقد تبيَّنَ أنَّ أكثرَ الفارين الذين نجوا بأنفسِهم مِنْ بطشِ الثوارِ كانوا ضُباطَ تلكَ القوةِ، إذْ امتطى أكثرُهُمْ السياراتِ المصفحةَ بَعدَ أنْ أداروا وجهتَها إلى الخلفِ تاركينَ غالبيةَ جنودِهِم هدفاً للثوارِ الذين انقضُّوا على فلولِ العدوِّ كالنسورِ يعملونَ فيهم تقتيلاً حتى استأصلوهم عن بكرةِ أبيهم.

وتكررتْ هذهِ الوقعات التي تَشْهدُ بازديادِ نشاطِ المجاهدينَ الثائرينَ على الرغمِ مِنْ تَضاعُفِ قواتِ المحتلينَ. حتى إنَّ أيَّةَ حملةٍ عسكريةٍ تُزمِعُ الخُروجَ مِنْ مراكِزِها لم تكُنْ تأمَنُ على نفسِها مِنْ تَعرُّضِ الوطنيينَ لها وإيقاعِ أفدحِ الخسائرِ فيها.

وهكذا كان لِزاماً على قادةِ الاحتلالِ أنْ يُعيدَ

النَظَرَ في خُطَطِهم بعد أن منِيَتْ قواتِهم بنكسات ما كانَتْ في الحِسْبانِ، ولمْ يَشفَعْ لهمْ ما دأبوا عليهِ من مضاعَفَةِ فِرَقِهمُ المحارِبَةِ.

لقد التفتوا إلى احكام ِالحِصارِ على الثوارِ و بذلوا جهداً كبيراً في سبيلِ تحقيقِ هذا الهدفِ، فنصبوا الأسلاكَ الشائكةَ عبرَ مئاتِ الأميالِ في محاذاةِ الحدودِ المصريةِ الليبيةِ، وعززوا إزاءهَا الحِراسَةَ المشددَةَ واستطاعُوا في نهايةِ الأمرِ قطعَ كلِّ السُبُلِ بين معاقِلِ الثوارِ في الجَبَلِ الأخضَرِ وبرقَةَ وبين الأراضي المصريةَ من جهةِ الشرقِ، كما تمكنوا من عزلِ مناطقِ الجنوبِ في الكفرَةِ وفي فزانَ عن سائرِ المناطِقِ. وكانَ مما أعانهُمْ على ذلك احتلالُهم قبلَ حينٍ واحةَ الجغبوب.

وقدْ خيلَ إلى المحتلينَ أنَّ هذهِ الإجراءاتِ كفيلةٌ

باحباطِ كل مسعىً للثوارِ، وكانَ هذا استنتاجاً منطقياً. فالمقاومةُ في برقةَ والجبلِ الأخضرِ وفزانَ وسائرِ أنحاءِ ليبيا أخذَتْ تعاني من وطأةِ القواتِ الإيطاليةِ التي كانت ترابطُ على معظمِ مفارقِ الطرقِ والمراكزِ الحساسةِ في طولِ البلادِ وعرضِها.

ولكن من كانَ لديهِ الإيمانُ فلنْ يكونَ بحاجةٍ في يَوْمِهِ إلى أكثر مِنْ كسرةِ خُبزٍ ونغبةِ ماءٍ مع بِضْعِ رصاصاتٍ يجعلُها ذُخراً في حزامِهِ ليلقمها رأسَ عدوِّهِ.

وفي ربيع ١٩٢٨ خرجَتْ كتائبُ الإيطاليين لملاقاةِ عمر المختار في ربوعِ الجبلِ الأخضرِ وفي تقديرهم أنهُ يعاني وصَحبَهَ مِنْ وطأةِ الحصارِ ونقصِ العَتادِ. وكان الاشتباكُ في ٢٢ نيسان (ابريل) ضارياً واستمرَ يومينِ ثمَّ انجلى عن هزيمَةِ القوةِ

الإيطاليةِ المحاربة تاركةً كميةً من المدافِعِ الجبليَّةِ وصناديقِ الذخيرةِ وعدداً من البغالِ والجمالِ، وكانت خيرَ غنيمةٍ...

وفي هذا العام ِنفسِهِ تفجرت الاشتباكاتُ ضدَ العدوِّ في سائرِ أقاليمِ البِلادِ حتى شَمَلَتْ الثورةُ معظمَ أرجاء ِليبيا. وباتَ العدوُّ في غم ٍعميقٍ.

سقوط الفارس

بوسعنا أنْ نعدَّ عامَ ١٩٢٩ نقطةَ انعطافٍ بالنسبةِ إلى السياسَةِ الإيطاليةِ في ليبيا. فبرغم توالي السنينَ الثماني عَشْرةَ وتعاقُبِ الحكوماتِ على روما فإنهُ ما مِنْ حكومةٍ تمكنتْ طوالَ هذهِ المدةِ من استئصالِ شأفَةِ المجاهدينَ وقطعِ دابرِ الثوراتِ.

لقد عمدَتْ الحكومةُ الفاشيةُ مؤخراً الى تعيينِ المارشال «بادوليو» حاكماً عاماً في ليبيا ومنحتهُ معَ الجنرال «غرازياني» صلاحياتٍ مطلقةً في سبيلِ فرضِ السيطرةِ الإيطاليةِ الكاملةِ على الترابِ الليبي بأسرهِ.

وكانَ أولَ ما فعلَهُ بادوليو لدى وصولِهِ إلى طرابلس وتسلُّمِهِ زمامَ الأمورِ إصدارُهُ بلاغاً رسمياً أعلنَ فيهِ: «إن حقَّ السيادَةِ الإيطاليةِ على ليبيا أمرٌ لا ينازعُها فيهِ أحدٌ، وإن على العربِ في هذهِ البلادِ أنْ يختاروا بينَ الاستسلامِ دونَ قيدٍ أو شرط، وبينَ أنْ يبادوا عن بكرَةِ أبيهم».

وخلافاً للحكامِ السابقينَ الذينَ أرسلتهُمْ روما إلى طرابلس رأى بادوليو الحاكم الجديدَ أن الأستراتيجيةَ الجديدةَ في هذه الظروفِ لا تتطلبُ جيوشاً نظاميةً كبيرةً، فعمدَ إلى تخفيضِ القواتِ المسلحةِ إلى الحدِ الذي يمكنُها مِنَ القيامِ بعملياتٍ عسكريةٍ محدودةٍ وفي مراكزَ كثيرةٍ، كفيلةٍ بشنِّ حربِ عصاباتٍ شبيهةٍ بالتي يَعمدُ إليها الوطنيونَ أنفسُهم، وبعد ئذٍ يأتي دورُ الجيشِ المعبَّأ في تصفيةِ المقاومةِ.

وقدْ هدأت الأحوالُ نسبياً تبعاً لهذِهِ السياسَةِ المرحليةِ، وأخذَ الحاكِمُ العام بادوليو يحوِّلُ الأموالَ مِنْ نفقاتِ التسلحِ إلى تقويةِ الحصونِ والقلاعِ وإلى شقِّ شبكةٍ واسعةٍ من الطرقِ ولا سيما في مناطقِ الجبلِ الأخضرِ تمهيداً لاستخدامها عندَ الحاجَةِ في الأغراضِ العسكريةِ.

ومن جهةٍ أخرى عاوَدَ المارشال بادوليو الاتصالَ بعمرَ المختارِ وأخذ يفاوِضُهُ على السلامِ. فوافقَ الزعيمُ الليبي على العرضِ الإيطالي مِنْ حيثُ المبدأ. ولكنَّ هذا العرضَ كانَ مشروطاً، إذْ كانَ على عمرَ المختارِ أنْ يقبلَ بالرحيلِ عن البلادِ إلى الحجازِ أو إلى مصرَ، أو أنْ يبقى في برقةَ ويحلَّ جماعاتِهِ ويعلِنَ انتهاءَ الثورةِ، وعندئذٍ يعيشُ حياةً هادئةً، وتكفلُ لهُ الحكومَةُ مرتباً ضخماً وتعاملُهُ بالاحترامِ اللائقِ بِهِ.

وذلكَ يعني بكلمةٍ واحدةٍ: الاستسلام.

ولكن هيهاتَ، وماذا يفعلُ البطلُ الذي واجَهَ الموتَ مراراً بمالٍ أو بمنصبٍ، وقدْ شارفَ من عمرِهِ السبعينَ وقضى حياتَهُ في كفاحٍ عنيدٍ؟.. أفبعدَ حياةٍ حافلةٍ بالتضحياتِ تساقَطَ خلالَها مِنْ حولِهِ آلافُ الشهداءِ من رفاقِ الجهادِ، يرضى بالعيشِ في كنفِ الدخلاءِ كالهرِّ الأليفِ، ويقعدُ طاعماً كاسياً على أريكةٍ وثيرةٍ حيكَتْ لهُ من خيوطِ الذلِ والاستكانةِ...؟

وعلى عادةِ المستعمرينَ فقد عمدوا إلى المداهَنَةِ والخداعِ خشيةَ انقطاعِ حَبلِ المفاوضاتِ، وحاولوا إدخالَ عُمرَ المختارِ في دوامَةِ المساومَةِ والأخذِ والردِّ. ولكنَّ ذلكَ كُلَّهُ لم يتمخضْ عَنْ أيةِ نتائج، وليسَ مِنْ شيمِ الثائرِ معرفَةُ أحابيلِ السياسةِ واتقانِ أساليبِ

المكرِ، ولا سيما بعدَ أنْ أخذَ الجانبُ الإيطاليُّ يذيعُ على الملأ أخباراً ملفقةً عن المفاوضاتِ بقصدِ التشكيكِ بالثورَةِ و بزعيمِها. وكان حقاً على الزعيمِ المختارِ المبادَرَةُ إلى الانسحابِ والعودةِ إلى معقِلِهِ في الجبلِ الأخضرِ..

وهكذا عادَتْ الأمورُ إلى نقطةِ البداية، بلْ سارَ المحتلونَ سيرةً شرسةً لا إنسانيةً ضدَ شعبِ ليبيا، فكانَتْ وصمةَ عارٍ لطَّختْ سمعةَ إيطاليا في العالم.

* * *

لقد عاشَتْ المقاومةُ العربيةُ في ليبيا أقسى ظروفِها بدخولِ عام ١٩٣٠ ثمَّ الأعوام القليلة التي تلتهُ. والآنَ سقطَتْ فزانُ التي استعصَتْ على الأعداءِ من قبلُ. أما في الجبلِ الأخضرِ فقد

استمرَّت عملياتُ الكرّ والفرّ كسابِقِ عهدِها. غيرَ أنَّ عمرَ المختار لمْ يكنْ دائماً على رأسِ المقاتلينَ. فقدْ ألحَّتْ عليهِ وطأةُ السنين بَعْدَ أنْ قارَبَ السبعينَ من عمرِهِ.

أما قواتُ الفاشيين فقد مضَتْ في تطبيقِ سياسَتِها المتعسفةِ الجائرةِ ضدَ الأهلين، وعمدَتْ إلى نزعِ السلاحِ من الأهالي بلا هوادةٍ واجتمعَ لديها آلافُ البنادِقِ المصادرَةِ، وحشروا الجموعَ الغفيرةَ من الناسِ في معسكراتِ اعتقالٍ جماعيةٍ تحتَ أسوأ ظروفٍ معيشيةٍ، وقاموا بتهجيرِ الكثيرينَ من السكانِ من بيوتِهِمْ وأراضيهم. حتى إنَّ الزعيمَ المختارَ نفسَهُ آثرَ نَقلَ دائرةِ عملياتِهِ إلى الناحيةِ الشرقيةِ في «الدفنة».

وفي هذا العام شنَّ غرازياني حملاتٍ قويةً ضدَ

المجاهدينَ، فحاصرهُمْ في «وادي سافية»، ثم اشتبكَ معهم في معركةِ «كرسه» وفي غمارِ هذهِ المعركةِ استشهدَ «الفضيلُ بو عمر» قائدُ القوةِ الليبيةِ المدافعةِ. وهو مِنْ رفاقِ الجهادِ القُدامى منذُ أنْ وطئتْ البلادَ أقدامُ المستعمرينَ. ومع أنَّ العدوَ خسرَ في معركةِ «كرسه» قرابةَ ٥٠٠ قتيلٍ بينهم ثلاثةُ ضباطٍ وواحد من القادَةِ، وأنَّ خسارةَ الثوارِ بلغتْ أربعينَ شهيداً إلى جانبِ زعيمِهم الفضيل بو عمر، فقدْ كانتْ معركةً قاسيةً على العربِ الذينَ قلَّتْ رجالهم وكثرَتْ شهداؤهُم.

ثمَّ زحفَ الإيطاليونَ في العام التالي ١٩٣١ على بلدَةِ الكفرة بقوةٍ كبيرةٍ تصدى لها الثوارُ المجاهدونَ ببسالةٍ نادرةٍ وسقطَ منهم في موقعَةِ الهواري حوالي مئةِ شهيدٍ، هم في الواقعِ جلُّ القوةِ المدافعَةِ إذْ لم يقعْ بين

أيدي الإيطاليين أسيراً سوى ١٣ مقاتلاً..

وسقطَتْ الكفرةُ ذاتُ المنزلةِ الرفيعةِ عندَ السنوسيينَ وقدماءِ المجاهدينَ بعدَ أنْ اشتدتْ حولها وطأةُ القتالِ ومهدَتْ لاحتلالها الطائراتُ الحربيةُ. وبسقوطِها يسقطُ معقلٌ مِنْ أكبرِ معاقِلِ الثورةِ في ربوعِ برقةَ. وبدا جلياً للعيانِ أنَّ المقاومَةَ قد شلَّتْ حركتُها في البلادِ أو كادَتْ.

وكانَ من عادَةِ الزعيمِ عمرَ المختار أنْ يتفقدَ مِنْ حينٍ إلى حينٍ مراكِزَ إخوانِهِ المجاهدينَ في المناطِقِ المجاورَةِ. وفي خريفِ ١٩٣١ وخلالَ جولةٍ من جولاتِهِ المعهودَةِ مرَّ بوادي «الجريب» في منطقةِ الجبلِ الأخضرِ ومعهُ أربعونَ فارساً من صحبهِ. ويبدو أنَّ جواسيسَ العدوِّ كانوا على علمٍ بتحركِهِ فكمنوا لهُ وطوقوا الوادي الذي أمسى الركبُ في جوفِهِ.

وإذْ ذاكَ لَمْ يكنْ ثمةَ بديلٌ عن القتالِ الضاري سوى الاستسلام ِ المخزي. إنّها معركةٌ غيرُ متكافئةٍ، ومعَ ذلكَ استمرّتْ يومينِ كاملينِ استطاعَ بَعدهُما عمرُ المختار أن ينفذَ مِنَ الحصارِ نفاذَ السهم ِ مِنَ الرميةِ فيخرجُ من ذلكَ الوادي إلى غربي «سلطنة» مع مَنْ بقيَ حياً مِنْ أصحابِهِ. ففاجأتهم قوةٌ أخرى لم تكنْ في الحسبانِ مساءَ ١١ أيلول (ديسمبر) ١٩٣١ فقاتلوها حتى آخر رمقٍ وكانَ الإعياءُ قد أخذَ منهم كلَّ مأخذٍ ونفدَ كل ما معهم مِنَ الذخيرةِ. وما زالَ المجاهدونَ يقاتلونَ و يقاتلونَ على قلةِ عددِهِم حتى سقطوا جميعاً شهداءَ أبراراً، أما عمر المختار فقدْ كانَ عليهِ في غمارِ المعركةِ أنْ يترجّلَ أرضاً معَ سلاحِهِ بعدَ أنْ قُتلَ مِنْ تحتِهِ حصانُهُ، و بعدَ أنْ أصابَهُ جرحٌ في يدِهِ، وثبتَ وحيداً يقاومُ، برغم

شيخوختِهِ وضَعفِهِ، ثم تكاثر عليهِ الأعداء وتمكنوا من اعتقاله ثم اقتادوهُ أسيراً.

وعندما اهتزَّتْ أسلاكُ البرقِ بالخبرِ المثيرِ قطعَ الجنرالُ «غرازياني» إجازتَهُ وعادَ لتوهِ من روما، وطلبَ إحضارَ أسدِ الصحراءِ إلى مكتبِهِ. فأُدخِلَ عليهِ شيخٌ مَهيبٌ يجللهُ الوقارُ وهو مقيدُ اليدينِ بالسلاسِلِ والأصفادِ يسيرُ بخطاً ثقيلةً.

وكانَ بينَ الرجلينِ حوارٌ قصيرٌ تكشفَتْ خلالَهُ غطرسَةُ اللئيمِ وشماتَتُهُ، كما تجلَّتْ أنَفةُ الكريمِ وعظمتُهُ. حتى إنَّ الجنرالَ الذي كانَ منتفخاً كالطاووسِ وراء مكتبِهِ الفخمِ نسي أو تناسى أنْ يطلبَ من ضيفِهِ المسنِ أو أسيرِهِ المتعبِ أنْ يجلِسَ ليستريحَ، وقد اضطرَ البطلُ السجينُ إلى طلبِ ذلكَ حينَ عجزَتْ ساقاهُ الضعيفتانِ عن حملِ جسدِهِ

الناحلِ. غيرَ أنَّ الجنرالَ لمْ ينسَ أنْ يدعو على جناحِ السرعةِ محكمتَهُ الطائرة لتنطِقَ ـــ و يا لهولِ ما نطقَتْ ـــ بحكمِ الموتِ على زعيمٍ قادَ شعباً في دروبِ الكرامَةِ وأعطى لأجيالِنا وللإنسانيةِ أروعَ مثلٍ في العزيمةِ والإقدامِ والإصرارِ على الحقِّ مهما تكنْ التضحيات.

لقد علقوا البطلَ على حبلِ المشنقةِ على ملأ مِنَ الناسِ، وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقدِ، ولم يشفَعْ لهُ أنَّهُ أمرؤٌ وطنيٌّ كان كلُّ ذنبهِ رفضَهُ اغتصابَ الدخلاء لبلادِهِ واباءَهُ عارَ الاحتلالِ لأمتهِ. بَلْ لَمْ تشفَعْ لهُ أمامَ حبلِ المشنقَةِ حتى شيخوخَتُهُ بَعدَ أنْ بلغَ من الكِبَرِ عِتِيّاً وأثقلَتْ كاهلَهُ أعوامٌ سبعونَ حفلَتْ بجلائلِ الأعمالِ.

لقد اغتالوا ذلكَ الجسمَ النحيلَ، اغتالوا جسدَ عمرَ المختارِ، ولكنهم هيهاتَ أنْ يغتالوا سيرَتَهُ ووطنيتَهُ وشرفَهُ وعظمتَهُ.

انهم ليسوا هُم الذين حاكموهُ في حقيقةِ الأمر تلكَ المحاكمةَ المخزيةَ، حينَ أعدوا لهُ المشنقةَ قبلَ أنْ يلفظوا حكمهُمْ عليهِ، ولكنهُ هوَ الذي حاكمَهمُ في محكمةِ التاريخِ، فحكمَ عليهم مِنْ أعماقِ ضميرِ الإنسانيةِ.

لقد حظيَ بشرفِ الخلودِ، وباؤوا بالعارِ ولعناتِ الأجيالِ أبدَ الآبدين.

وما كانَ لهذا الدمِ أن يذهبَ هدراً وان تُهدَر معهُ دماءُ الآلافِ المؤلفَةِ من الضحايا الشهداء، «فالعاقبةُ للمتقينَ».

ولمْ تَمضِ أعوامٌ كثيرةٌ حتى اندلعَ لهيبُ الحربِ العالميةِ الثانيةِ. وذاقَ الإيطاليونَ الأمريْنِ خلالَ تلكَ الحربِ الضروسِ، ومنوا بهزائمَ ألحقَتْ بهم أبشعَ

ألوانِ العارِ، وغاصَت سمعتُهم في أدنى أعماقِ الوحلِ، ولَقيَ زعيمُهم موسوليني وزبانيتُهُ أسوأ المصير، «وما مِنْ ظالمٍ إلاّ سيُبْلى بأظلَمِ».

كشف الحساب والمغزى الكبير

والآن، في خاتمةِ المطافِ، وبعدَ أنْ نَعِمَتْ ليبيا المعاصرةُ بالتحرُّرِ وَمَنَّ اللهُ عليها بجلاءِ الغاصبينَ، جديرٌ بنا نحنُ ـ الشبابَ العربيَّ ـ أنْ نستعرِضَ بنظرةٍ سريعةٍ شريطَ الأحداثِ الحافلةِ لنتأمَّلَ بعدَ ذلكَ الدروسَ والتجارِبَ والعِبَرَ المستخلصَةَ من تاريخِ نضالِ شعبٍ عنيدٍ من شعوبِ الأمةِ العربيةِ المكافِحَةِ.

ولا بدَّ قَبْلَ كلِّ شيءٍ من ذكرِ حقيقةٍ تاريخيةٍ واقعةٍ، فالمستعمرونَ في ليبيا، كشأنِهم طوالَ احتلالِهم سائرَ بلادِ العربِ ـ لمْ ينعموا طويلاً

بالراحَةِ التي كانوا ينشدُونها ولا بالسعادَةِ التي كانوا يحلمُونَ بها. لقد تعاقَبَ عليهم عشرونَ سنةً كاملةً، منذُ هجومِهم على البلادِ سنة ١٩١١ حتى وفاةِ الزعيمِ المختارِ سنةِ ١٩٣١، سنوات كانت كلُّها حروباً ومعاركَ وقتلاً ودماراً. حتى إذا ما خيِّلَ إلى الغاصبِيْنَ بعدَ تَخَلُّصِهم مِنْ زعيمِ الثورةِ أنَّ البلادَ قد دانَتْ لهم، شبَّتِ الحربُ العالميةُ الثانيةُ، فَلذعَتْهُم نيرانُها ومَا هيَ إلا بِضْعُ سنواتٍ أو نحْوهَا حتَّى لحقَ بهم عارُ الهَزيمَةِ. ثمَّ انْتَهى بهِمْ الأمْرُ إلى أنْ عَادُوا إلى دِيارهِمْ مذمُومينَ مدْحُوْرينَ على ظَهْرِ السفنِ التي سَبقَ أنْ أقلتْهُمْ يَومَ الاحْتِلالِ إلى بلادِنَا الآمنةِ.

فمَاذا رَبِح المُستَعْمِرونَ بعدَ تِلكَ السنِيْنَ الطويلةِ التي كانَ حَصادُها آلافَ الضحَايَا من زَهْرةِ شبَابِ إيطاليا الذينَ جندَلهم رصاصُ الثوّارِ على

رمالِ الواحَاتِ أوْ فَوقَ صخورِ الجِبَالِ... وأيضاً ملايينَ الأموالِ والنفقَاتِ البَاهِظةِ التي صَرَفَتْها الحكومةُ على جيشِ الاحْتلالِ وحَمَلاتهِ العسْكَريةِ، ومَا هيَ في واقعِ الأمْر الاّ أمْوالٌ وَضَرائبُ انتُزِعتْ مِنْ جُيُوبِ الإيطاليينَ بَلْ مِن رغيفِهِمْ ودوائِهِم وَأفوَاهِ أطفالِهم.. أجَلْ، لقَدْ خَسِروا كلَّ ذَلِكَ، وخَسِرُوا معهُ أكْثَرَ مِنْ ذلكَ، وهُو سُمْعتهمْ وشرفُهُم.

وفي يَقِينِنا أنَّ حِساباتِ الإيطاليينَ كانتْ منذُ البدايةِ خاطئةً، فقدْ أعْمتهُمْ شهوةُ التسَلُطِ على بلادِ الآخرينَ، واسْتهانُوا بهِمْ وظنُّوا أنَّ احْتِلالَ بلادِ العربِ أمرٌ يسيرُ المنالِ ولا يعدوْ أنْ يكونَ نزهةً بحريةً ينزلونَ بعدهَا على شواطىء ليبيَا الدافِئَةِ. ومَا كانَ يدورُ في خلدهمْ قطُّ أنَّ علَيْهمْ أنْ يُحَاربُوا الأهلينَ عشْرينَ حوْلاً حتَّى يَتَمكَّنُوا في نِهَايَتِها منْ بَسْطِ

نُفُوذِهِمْ على البلادِ.

وفي هَذا الصَّدَدِ ورَدَ في كتاب «حاضِرِ العالِمِ الإِسْلامي» قولُ الأميرِ شَكيب أرسْلان:

«إنَّ الطِلْيانَ قرَّرُوا لِتَدْويخِ طَرَابُلْس وبرقةَ كلّهَا، مدَّةَ خَمْسةَ عشرَ يوْماً منْ أوَّلِ نُزولهم. وأنَّ قواداً منَ الإِنكليزِ المحنّكينَ في حروبِ المُسْتعمراتِ والبَوادي قَالُوا إنَّ الطِلْيان أفْرطُوا في التَفاؤلِ، والحَقيقةُ أنَّ هذهِ المسألةَ قدْ تأخذُ منهمْ ثلاثةَ أشهرٍ..

«فَلْيَنْظرِ الإِنسانُ كيفَ أنَّ المدَّةَ التي قدَّرَها أرْكانُ الحرْبِ في إيطاليا، وَقدَّرهَا أركانُ الحربِ في انكلترا ثلاثةَ أشهرٍ تطَاوَلتْ ثلاثَ عشْرةَ سنة

كَامِلة، والحربُ اليومَ هيَ كمَا كانتْ في بدايتِهَا[1]».

* * *

وبهذَا المِنْظار، وإذا كانتِ الأمورُ بخواتِمِهَا فإنَّه منَ الجلي أنَّ الاحتلالَ الايطاليَّ لِبلادِ ليبيا العربيَّةِ قدْ أخْفقَ، كمَا كانَ شأنهُ في سائرِ بلادِ العربِ، فلمْ يستطعِ المُسْتَعمِرونَ أنْ يُثَبِّتوا أقدامَهُم في وطنِنا العربيِّ الاَّ إلى حينٍ، ثمَّ اضْطُرّوا بعدهُ إلى الرحيلِ والعوْدةِ منْ حيثُ أتَوْا مشيَّعينَ باللعَنَاتِ.

وبِوسْعِنا أنْ نعزوَ إخْفاقَ الإيطاليينَ في كَسبِ

(١) كتب الأمير شكيب هذه المقاطع والثورة الليبية ما تزال مستعرة يخوض غمارها عمر المختار وسائر المجاهدين في هذه الربوع العربية.

هذهِ الحربِ على نَحْوٍ حاسمٍ، وكمَا قدّرُوا، بِرغمِ اسْتِعْدادِهِمُ الكَبيرِ لِخوضِهَا، ومُواتاةِ الظروفِ الدُوليَّةِ لهمْ، إلى جملةٍ منَ الأسبابِ:

١ ــ ارْتِفَاعُ مَعْنوياتِ المُقاتلينَ العربِ ــ وجُلُّهمْ منَ السنُوسيينَ ــ الّذينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ الصُمودَ أمَامَ الغُزاةِ مَا هُوَ إلاَّ جِهادٌ في سبيلِ الله، وأنَّ التَصدِّي للمُعتدينَ إنَّما هُوَ نَوْعٌ منَ العِبادةِ والتَقرُّبِ منَ الله.

وَقدْ امتَازُوا تِبْعاً لِذلكَ بشجاعةٍ فائقةٍ جعلتْهمْ يسْتهينُونَ بالمَوْتِ دفاعاً عنْ وطَنِهمْ وإرضاء لربِّهمْ. ومِنْ هنَا كانتِ العَاقبةُ في القِتالِ لَهمْ برغْمِ قلَّةِ عدَدِهِمْ. أمَّا الإيطاليونَ فَلمْ يكنْ لعَامتِهمْ وجُنودِهِم مصْلحةٌ أوْ مَنفَعةٌ مِنْ هذهِ الحربِ. لقَدْ أتِيَ بهمْ إلى هَذهِ البلادِ بعدَ أنْ لفَظتْهمُ السُّفنُ منْ أشْداقِهَا،

ووُضِعُوا في أمَاكِنَ نائيةٍ لا يَعرفُونَهَا، ثمَّ كانَ عَليْهِمْ أنْ يُقاتِلوا أناساً دُونَ أنْ يَدْروا سبَباً وجيْهاً لقِتَالهِمْ، ولربَّمَا ماتُوْا، ولكِنْ في سبيْلِ مَنْ يموتُونَ!

٢ ـــ كانَ المُعْتدونَ الطليان يؤثِرونَ في غَالبِ الأحْيانِ تَجنُّبَ الحركَةِ، ويُفَضِّلونَ المكثَ وراء الحَواجِز أوْ في الخَنادِقِ، دونَ أنْ يجْرؤوْا على الخُروجِ والزَّحْف تحسُّباً لضَرباتِ المُجَاهِدينَ. ومَا منْ شكٍّ في أنَّ الذُّعرَ قدْ فعلَ فِعْلهُ في نُفُوسِهِمْ، إذْ لمْ يَكونُوْا يَعتَقِدونَ بأنَّهُمْ سيُوَاجِهُونَ أناساً أَشدَّاء، يَزجُّونَ بِأَنفُسِهِمْ في لَهيْبِ المَعْركةِ دُونَ خوفٍ أوْ وجَلٍ.

وتذكرُ مصادرُهم أنَّ بعضَ قادتِهم قدْ قدَّروا أعدادَ المجاهدينَ بأكثرَ مِنْ واقعِهَا، برغمِ محاولاتِ الاستطلاعِ التي كانوا يقومونَ بها، سواء عن طريقِ

طائراتِهِم التي كانَتْ تُحلِّقُ فوقَ تجمعاتِ المجاهدينَ ومعاقلِهِم، أو عَنْ طريقِ عملائِهِم وجواسيسِهِم. وكثيراً ما حدثَ أنَّ قوةً بأسرِها منْهم كانَتْ تولّي الأدبارَ تاركةً سلاحَها وعتادَهَا لتنجوَ بنَفسِها إذا صادفت قلةً مِنَ المجاهدينَ الذين كانوا يقفزونَ برشاقةٍ على خيولِهِم و يَنْقضونَ على العدوِّ انقضاضَ النسورِ على الحمائمِ.

وهكذا أضاعوا فرصاً ثمينةً كان بوسعِهِم من خلالِهَا أن يسيطروا على البلادِ في مدةٍ وجيزةٍ.

٣ ــ اتخذَ العسكريونَ الغزاةُ وضعَ الترقبِ والانتظارِ، بعدَ أنْ وزعوا على الملأ منشوراتٍ ونداءاتٍ أعدوها وطالبوا فيها السكّانَ بالإخلادِ إلى السكينةِ ومؤازرةِ الاحتلالِ، باذلينَ خلالَ ذلك كله وعوداً بالطمأنينةِ والرخاءِ. وهذهِ الوعودُ الكاذبةُ

أضرتْ بِهِم كثيراً لأنَّها قَيّدَتهُم دون أن يكونَ في نيتِهم إنجازُ شيءٍ منْها.

٤ ـــ وكانَتْ تقديراتُ المخابراتِ الإيطاليةِ خاطئةً أصلاً إذ كانوا يظنون أنَّ العربَ في هذهِ الربوعِ الليبيةِ مستاؤون مِنَ الوضعِ الداخليِّ ومِنْ أساليبِهِ السياسيةِ والإداريةِ الباليةِ، وأنَّهُم نتيجةً لذلكَ سوفَ يهللون لسفنِ الدولةِ المتحضرةِ و يلتفونَ حولَ قادتِهَا ويجدونَ فيهم جيشَ الإنقاذِ، ولكن المجاهدين آثروا الاستبسالَ والاستشهادَ ليسجلوا بدمِهِم رفضَهُم للغزو الاستعماري وتمسكَهُم بحريتِهِم حتى آخرِ رمقٍ من حياتِهِم.

٥ ـــ إنّ أسلوبَ البطشِ والإرهابِ الذي اتبَعهُ جيشُ العدوانِ، وهو فيما يدعي حامِلُ لِواء التَمدُنِ والمُبَشِّرُ برسالةِ التَقَدُمِ، هذا الأسلوب قدْ ألَّبَ

ضدهم السكَّانَ الوطنيينَ فهبوا يذودونَ عن حياضِهِم و يدافعونَ عن وجودِهِم. فضلاً عن أن أعمالَ المحتلين الطائشةَ هذهِ قد شوَّهَتْ سمعتَهُم بين الشعوبِ وحطَّتْ مِنْ قيمتِهِم لدى العالم.

لقد كانَ من جراءِ أساليبِ القمعِ والإبادَةِ أنْ بلغَ مجموعِ الضحايا الذينَ فتَكَ بِهِم الغاصبون في ليبيا ٥٧١ ألفاً من الأهْلينَ، كانوا في معظمِهِم من الأبرياءِ الآمنين، وهذا العددُ الكبيرُ من الضحايا يشكلُ نصفَ عددِ سكانِ هذا القُطْرِ العربيِّ الشقيقِ.

٦ ــ إنَّ معاركَ الجبلِ الأخضرِ والكفرةِ وجغبوبَ وطرابلسَ و بنغازي وفزانَ، لم تكن في واقعِ الأمر معاركَ محليةً بل كانَتْ جزءاً من حركةِ نضالٍ عربيةٍ شاملةٍ كانَتْ تتفجرُ بينَ الحينِ والحينِ في

أنحاء الوطنِ العربي. وقد عبر الحدودَ إلى ليبيا العديدونَ مِنْ مصر متطوعينَ في صفوفِ الثورةِ، كما كان بينَ المجاهدينَ عددٌ مِنْ شبانِ العراقِ والسودانِ. بل إنَّ الشيخَ محمدَ بنَ عليٍّ السنوسي مؤسسَ الدعوةِ السنوسيةِ ورائدَ الجهادِ المقدسِ إنما وُلِدَ في الجزائرِ وعلَّم مدةً في المغربِ وعاشَ في الحِجازِ واستقرَ بهِ المقامُ في ليبيا.

كلُّ ذلك يعني أنَّ معركةَ العربِ في مُختلفِ ديارِهِم مَعرَكةٌ شاملةٌ، ومظهرٌ حيٌّ لحركةٍ قوميَّةٍ واحدةٍ.

كذلك كانَ العدوُّ واحداً وإنْ اختلفَتْ أسماؤه، حينَ تقاسَمَ الاستعمارُ بلادَنا على مائدةِ اللئامِ فكانَتْ هنا إيطاليا وهناك فرنسا وإلى جانبها بريطانيا... إنَّها حملاتٌ صليبيةٌ جديدةٌ عادَتْ إلى

بلادِ العربِ والمسلمينَ دونَ أن تستفيدَ مِنْ عبرِ التاريخِ، فإذا هي تعودُ مذمومةً مدحورة لأن التاريخَ يأبى إلاَّ أن يعيدَ نَفْسَه. ألم يُباركْ الكثيرونَ من القسسِ والمبشرينَ قادةَ الاحتلالِ الإيطالي في ليبيا، و يقروا أساليبَ الجورِ والتنكيلِ ضد الشعبِ الآمن، و يعينوا السلطةَ الحاكمَةَ على إرغام الناشئةِ على اعتناق الكثلكةِ والتنصرِ، خلافاً لجوهرِ الأديانِ التي كرَّمَتِ الإنسان وآخَتْ بينَ عِبادِ الله وكانَتْ رحمةً للعالمينَ.

* * *

وجملةُ القولِ أنَّ هذا المثالَ الذي ضربهُ المجاهدونَ العربُ في ليبيا للأجيالِ هو المثالُ نفسُهُ الذي ضربهُ الوطنيونَ العرب أيضاً في سائرِ بلادِ العربِ، في مِصْرَ وسورية والعراق والمغرب وتونس

والجزائر... وكما كانَ حالُ عمرَ المختار في ليبيا كان أيضاً حالُ أشقاء آخرينَ في أقطار الوطنِ العربيِّ مثل أحمدَ عرابي في مِصْرَ والأميرِ عبد القادر الجزائري في الجزائرِ، ومحمدِ عبد الكريمِ الخطابي في المغربِ، وابراهيمَ هنانو في سوريةَ، وعبد القادر الحسيني في فلسطينَ...

على أنَّ عمرَ المختار كان بحقٍ شيخَ المجاهدينَ، وقلّ أنْ رأينا زعيماً ثائراً دأبَ على حملِ السلاحِ والتصدي للغزاة وهو في مثلِ هذه السنِّ المتقدمةِ.

كذلكَ زُجَّ بكثيرٍ مِنْ زعماءِ العربِ في أعماقِ السجونِ مثلَ هنانو والخطابي، كما نفي العديدون أيضاً مثل الأميرِ عبد القادرِ وأحمد عرابي... كذلك سقط آخرونَ شهداءَ في ساحةِ الشرفِ مِثلَ يوسف العظمة وعبد القادر الحسيني... ولكن ما مِنْ زعيمٍ

كعُمرَ المختارِ أيضاً لقي هذا المصيرَ الرهيب وتعرض لهذا الحقدِ اللئيمِ.

ومن هنا كان لاستشهادِ عمرَ المختارِ على هذهِ الصورةِ، بل من لحظةِ تلقيهِ حكم الإعدام بابتسامةِ المؤمنِ الراضي بما قسمَ الله له... مغزى عميقٌ، فإذا هو منذُ ذلكَ الحينِ أبو المجاهدينَ وزعيم الثائرينَ ورائدُ المناضلينَ.

لقد أصبح عمرُ المختارُ رمزاً باقياً بل أسطورةً حيةً في ضمير الأجيال، يعيشُ في مخيلةِ كلِّ عربيٍّ، و يتجلَّى في تاريخ الكفاحِ العربيِّ بطلاً عظيماً تضافُ سيرتُهُ الفذَّةُ إلى سيرِ أبطالِنا الخالدينَ وأمجادِ الجدودِ الذين تألقوا في جبينِ الإنسانيةِ، وغدوا منارات هاديةً للأجيال.

ولعلَّ أحمدَ شوقي شاعرَ مصْرَ بَلْ أَميرَ الشعراء العربِ قد عبّر يومئذٍ عن هذِهِ المعاني الساميةِ التي تمورُ في ضمائرِ كلِ العربِ، وجسّدها في أبياتِهِ الرائعةِ حينَ رثى شيخَ الشهداءِ، فإذا قصيدتُهُ الهمزيةُ على كلِّ لسانٍ في دنيا العروبة:

ركــزوا رُفــاتَــكَ في الـرِمـالِ لـواءَ
يـسْتَـنْـهِضُ الـوادي صـبـاحَ مساءَ
يـاويـحَهُـم، نـصـبـوا مناراً مِنْ دمٍ
يـوحـي إلى جـيـلِ الـغـدِ الـبـغـضاءَ
مـا ضرَّ لـو جـعـلـوا الـعلاقـة في غدٍ
بين الــشـعــوب مــودةً واخــاءَ
جـرحٌ يـصـيـحُ على المـدى وضـحـيَّةٌ
تــتــلــمـسُ الحــريــةَ الحــمــراءَ

يـأيُّـهـا الـسـيـفُ المجرَّدُ بـالـفـلا

يـكـسـو الـسيوفَ على الزمانِ مضاءَ

تـلـكَ الـصـحـارى غـمـدُ كلِّ مهندٍ

أبلى فـأحـسـنَ في الـعـدوِّ بـلاءَ

* * *

خُـيِّرْتَ فاخترْتَ المبيتَ على الطوى

لم تـبـنِ جـاهـاً أو تَـلُمَّ ثـراءَ

إنَّ الـبـطـولـةَ أن تموتَ من الظما

لـيـس الـبـطـولـةُ أن تَـعُـبَّ الماءَ

أفـريـقـيـا مـهـدُ الأسـودِ ولحدُهـا

ضـجَّـتْ عـلـيـكَ أراجـلاً ونـسـاءَ

والمـسـلـمونَ على اخـتـلافِ ديارِهِم

لا يمـلـكـون مـع المـصـابِ عزاءَ

* * *

في ذمـةِ اللهِ الـكـريـمِ وحـفـظِهِ
جسـدٌ (ببـرقـة) وُسِّدَ الصـحـراءَ
لمْ تُبقِ منهُ رحى الوقائع أعظما
تـبلى ولم تـبـقِ الـرمـاحُ دمـاءَ
كـرفـاتِ نَسْرٍ أو بقيةِ ضيغمٍ
بـاتـا وراء الـسـافـيـاتِ هبـاءَ
بـطـلُ الـبـداوةِ لم يـكـنْ يغزو على
«تَنْكٍ» ولم يكُ يركبُ الأجواءَ
لكنْ أخو خَيلٍ حمى صهواتِها
وأدارَ مِنْ أعرافِـهـا الهـيـجـاءَ

* * *

لبّى قضاء الأرضِ أمسِ بمهجةٍ
لَمْ تَخْشَ إلاَّ للسماءِ قَضَاءَ
شـيـخٌ تمـالـكَ سِنَّهُ لم ينْفَجِرْ
كـالطفلِ مِنْ خوفِ العقابِ بكاءَ

الأسْدُ تزأر في الحديدِ ولَنْ ترى

في السجنِ ضرغاماً بكى استخذاءَ

وأتى الأسيرُ يجرّ ثقل حديدِهِ

أسدٌ يجرّر حيةً رقطاءَ

* * *

دفَعوا إلى الجلاَّد أَغْلَبَ

يأسوا الجراحَ ويُطلِقُ الأسراءَ

ويُشاطرُ الأقرانَ ذخرَ سلاحِهِ

ويصفّ حول خوانِهِ الأعداءَ

وتخيروا الحبل المُهينَ منيةً

لليثٍ يلفظُ حولهُ الحَوْباءَ

* * *

يا أيُّها الشعبُ القريبُ أسامِعٌ

فأصوغ في عُمَرَ الشهيدِ رثاءَ

ذهبَ الزعيمُ وأنت باقٍ خالدٌ
فانْقُدْ رجالكَ واخترِ الزعماءَ

وأرحْ شيوخَكَ مِنْ تكاليفَ الوغى
واحمِلْ على فتيانِكَ الأعباءَ

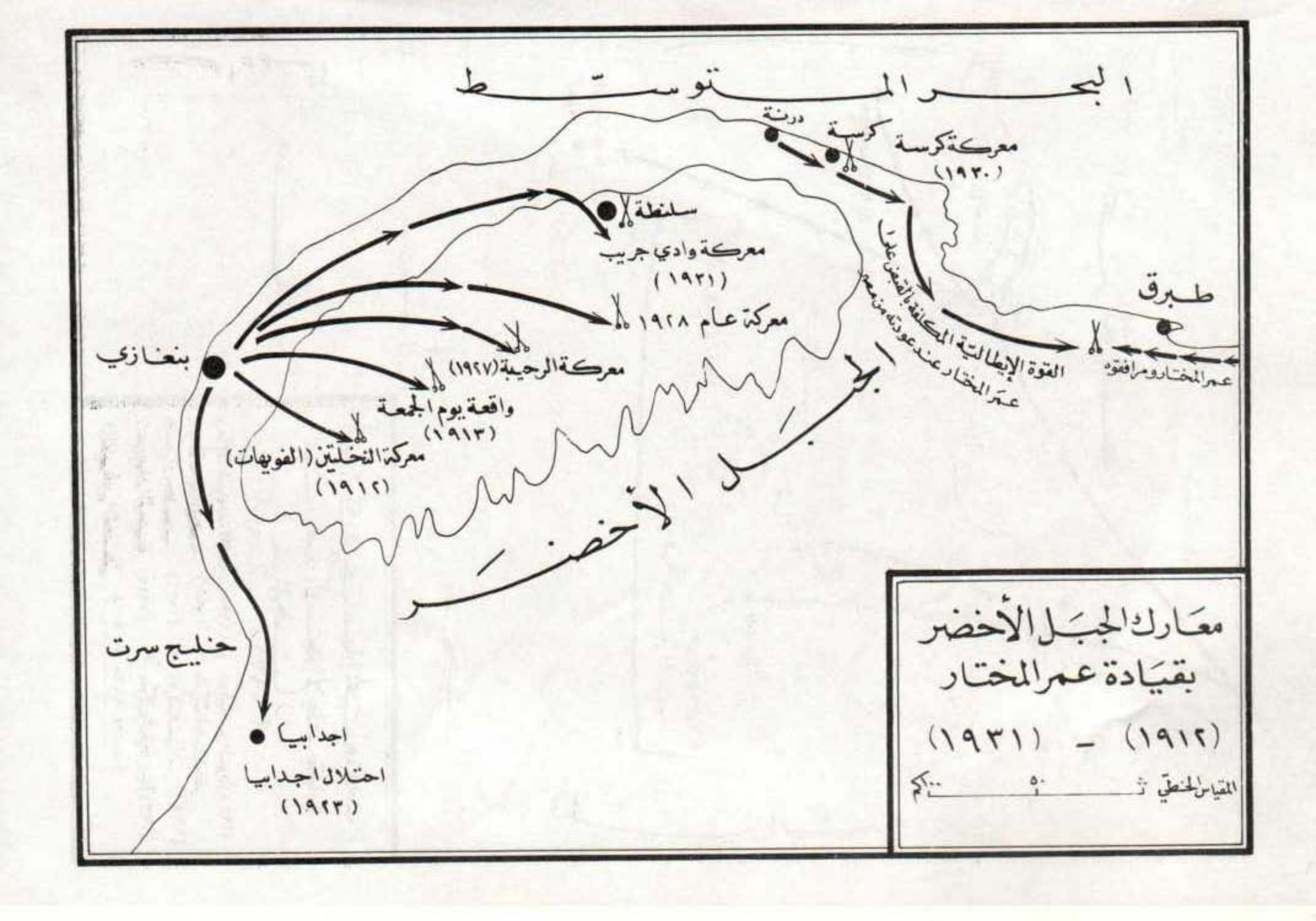
* * *

يالها من سيرةٍ بطلٍ ثائرٍ وشهيدٍ رائدٍ. لقد ماتَ عمرُ المختارِ ليحيا في قلبِ كل عربيٍّ، وليغدو مناراً لكلِّ المناضلينَ عن ترابِهِمُ المقدَّسِ، الذائدين عن شرفِهِمُ الرفيعِ...

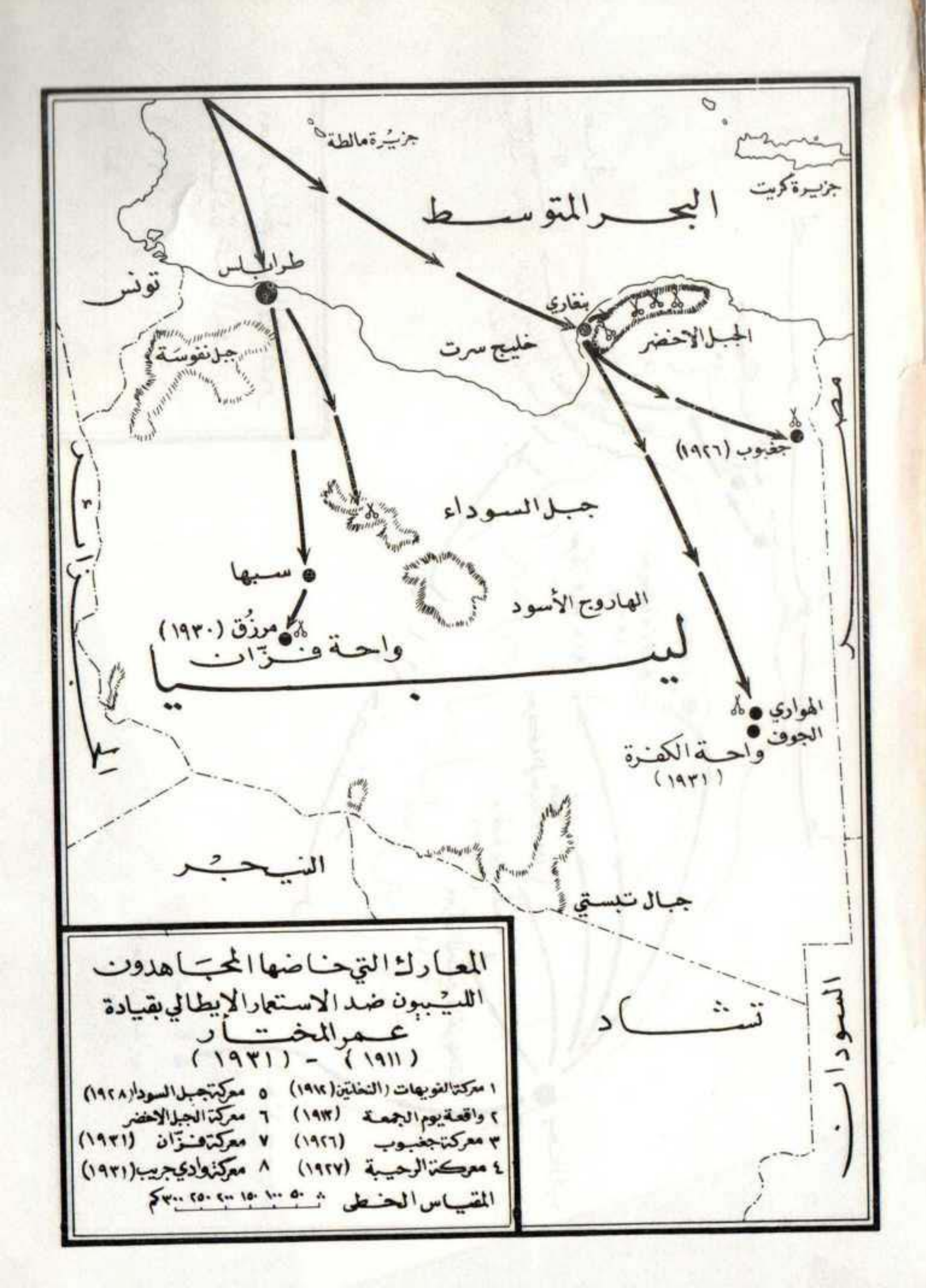
و يا ليها أيضاً من سيرةِ شعبٍ عنيدٍ مناضلٍ و بلدٍ صابرٍ مجاهدٍ. لقد قَضَى نصفُ الشعبِ في ليبيا نَحْبَهُ، وروّى بدمِهِ الطاهِرِ ثرى وطنِهِ الغالي في سبيلِ أنْ يُنْبِتَ لمَنْ بقوا شجرة الكرامةِ، وليتيحَ لهُم أيضاً أن يعيشوا في أرضِ أجدادِهِم سادة أعزةً.

إنَّ الإيمانَ أقوى مِنَ الجيوشِ والأساطيلِ...
وإنْ إرادَةَ التحريرِ أمضى مِنَ قُوةِ الحديدِ
والنارِ...
والله مُع الصابرينَ، والنصرُ أبداً للشعوبِ...

المحتوى



البحر المتوسط
درنة
كرسة
معركة كرسة
(١٩٣٠)
سلنطة
معركة وادي جريب
(١٩٣١)
معركة عام ١٩٢٨
معركة الرحيبة (١٩٢٧)
واقعة يوم الجمعة
(١٩١٣)
معركة النخلتين (الفويهات)
(١٩١٢)
بنغازي
طبرق
القوة الإيطالية المكلفة بالقبض على عمر المختار عند عودته من مصر
عمر المختار ومرافقوه
الجبل الأخضر
خليج سرت
اجدابيا
احتلال اجدابيا
(١٩٢٣)
معارك الجبل الأخضر
بقيادة عمر المختار
(١٩١٢) - (١٩٣١)
المقياس الخطي



جزيرة مالطة
جزيرة كريت
البحر المتوسط
تونس
طرابلس
بنغازي
الجبل الاخضر
خليج سرت
جبل نفوسة
جغبوب (١٩٢٦)
جبل السوداء
سبها
الهاروج الأسود
مرزق (١٩٣٠)
واحة فزان
ليبيا
الهواري
الجوف
واحة الكفرة
(١٩٣١)
النيجر
جبال تبستي
تشاد
السودان
مصر
المعارك التي خاضها المجاهدون
الليبيون ضد الاستعمار الإيطالي بقيادة
عمر المختار
(١٩١١) - (١٩٣١)
١ معركة القويهات (النخلتين) (١٩١٢)
٢ واقعة يوم الجمعة (١٩١٣)
٣ معركة جغبوب (١٩٢٦)
٤ معركة الرحيبة (١٩٢٧)
٥ معركة جبل السودا (١٩٢٨)
٦ معركة الجبل الاخضر
٧ معركة فزان (١٩٣١)
٨ معركة وادي جريب (١٩٣١)
المقياس الخطي
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ ٣٠٠ كم



معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية

الحدث الحمراء — وادي لكه — المنصورة — ذي قار

وادي المخازن — بدر الكبرى — عمورية — الذلاقة

فتح قسطنطينية — عين جالوت — ميسلون — الارك

الجبل الاخضر — اليمامة — نهاوند — احد

بلاط الشهداء — القادسية — اليرموك — حطين

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -